سلام إبراهيم

رؤيا اليقين

الأعمال الكاملة 8

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

رؤيا اليقين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: سلام إبراهيم
الكتاب: رؤيا اليقين (قصص)ـ الأعمال الكاملة 8
صدرت النسخة الرقمية: حزيران/يونيو 2026
الطبعة الأولى 1994، دار الكنوز الأدبية ـ بيروت ـ لبنان.

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa»ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 8

سلام إبراهيم

رؤيا اليقين

قصص

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفهرست

1- المتاهة..... 7
2- رؤيا اليقين 27
3 - إنها الحرب..... 47
4 - وداع..... 55
5 - لقد أسكته..... 63
6 - الجندي 69
7 - الصراط المستقيم 77

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

1- المتاهة

.. ما الذي أتى بي إلى هذه المدينة الجوفاء.. من؟.. أجري.. أجري.. شوارع خالية تبرك في ليلٍ مظلمٍ أخرس.. أجري.. أجري.. لهاث بشري يلاحقني.. تقطعت أنفاسي يا رب السماء.. ألا من ملجأٍ؟.. أجري مذعور القلب.. أجري.. أشياء تتلامع في الظلمة أمامي، خلفي، فوقي. إلى جانبي.. أبواب تضيء للحظة وتغيب.. أبواب تستطيل وتبرق.. أبواب مقفلة.. أبواب معدنية.. أينك يا أمي؟.. يهتز القلب.. يكاد يفلت من بين أضلعي.. يا للوحشة.. أين الجبل؟.. يا لضياعي.. كنت بين الأنصار.. هادئ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

البال.. لهاث.. لهاث خيول.. أينكِ يا قرى الجبل؟.. يا وجوهاً أليفة..!.. مَنْ...مَنْ حشرني في مدينة الفزع هذه؟.. آلاف الخيول تسعي ورائي.. هدّني التعب.. يا لبؤسي.. وانبثقت جانبي طفلة خضراء مضيئة.. ملت جارياً نحوها.. خذيني... خذيني معك.. ضيعيني بخضرتك.. خلصيني!.. قطعتْ الشارع كالبرق وغابت خلف باب أعتم.. يا أمي.. يا رفاق.. التفتُّ... صف الخيول المتراص يرمي قوائمه الهوجاء بأعقابي.. شررٌ يقدح من عيونها يكوي ظهري.. يا رب الخيول الجامحة المجنونة أجري... أجري... والشرر أنجذب حولي بقعة ضوء من نار. أهلكني الجري وانكشاف الستر ببقعة الضوء العاهرة.. الفاضحة.. الخيول.. الخيول.. آه ستلحقني.. آه للشرطة ضجة حوافر الخيل المنعّلة على الإسفلت.. آه لفح أنفاسهم أحرق قفاي.. يا أمي يا حبيبة.. انحلت مفاصلي... سأسقط.. سأسقط... الخيول.. الشرطة.. العسكر.. بقعة الضوء المضيئة اللاصقة. فانكببت على وجهي وأنخرس صراخي بجوف فمي.. تقلبتُ.. استقريت على ظهري. عيناي تحجرتا على مئات الحوافر المسننة، البارقة كأنصال مشرعة فوقي.. يا ربَّ الليل ستهوي.. ستمزق لحمي..سـ..سـ.. آه.. آه.. آه..ه..ه.

أنتفض داود من إغفائه مذعوراً فارتطم رأسه بأغصان مشتبكة لشجيرتي بلوط كان يختبأ بينهما. بحث عن زمزميته وبلَّ ريقه الناشف بقطرات ماء، وضجة حوافر الخيل ترن بأذنيه. تمدد على ظهره. حاول الاسترخاء متأملاً شمس أيلول من بين اشتباك الأغصان تتسلق مسلكها الأبدي الصاعد نحو منتصف السماء.

.. ما أثقل النهار.. ما أمره.. يتوجب أن أسكن بمكاني الضيق هذا حتى حلول الظلام، فالجنود اجتاحوا الجبال بأعداد هائلة بعد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أن مهدوا لزحفهم بقصف القرى المحررة بغازات الكيمياء.. ودفعةً واحدةً انهار كل شيء.. عشرات من النسوة والأطفال والعجائز مروا بقوافلهم الراجلة نازحين صوب الحدود التركية.. قوافل من البكاء والصراخ والعيون المنكسرة.. قوافل مذعورة تركت خلفها أبناءها وأقرباءها المختنقين بالخردل والسيانيد وغازات الأعصاب على عتبات البيوت وفي الحقول وأزقة القرى وأسرة النوم.. دون دفن.. كان يشرد بعينيه المتجمرتين من تلك العيون المترعة بالحزن والرعب تعصر قلبه ألماً وهو يرى بالناظور من قمة "كارا"* حيث التجأوا. القرى التي أحبها.. ميزه.. كاني ماسي.. كهربه.. كفركي.. سواري.. سبنداري.. و.. و.. تطأها أحذية الجند الذين تقذف بهم عشرات الطائرات المروحية... ينهبون أسلاب الناس المتروكة، ويضرمون النار في بيوت الطين الأليفة.. قبل أن تأتي البلدوزرات لتسويها بالأرض. كانت أسنان البلدوزر تجتث من قلبه أعز الأشياء.. ففي تلك القرى ذاق الخبز الحار.. وفي غرفها شم رائحة البيت.. وبعيون نسائها أبصر حنو أمه.. تجرع المر.. وأكمده شعور بالعجز ولدته البنادق الميتة المثقلة أكتافهم، يتجولون بين قمم كارا الباردة في عز ليل أيلول حيث حوصروا، ومع برودة البندقية وهجرة سكان القرى ومحوها.. غزا قلبه الصقيع، وصارت البندقية في الأيام التالية آخر ملجأٍ يضطر إليه تائهاً.. لكن حتى ملجأه الأخير والذي يبعث الطمأنينة في نفسه أضاعه في عتمة الليلة الفائتة. عض أصابعه ندماً وردد:

* وردت أسماء قرى كردية دمرت بحملة الأنفال أواخر 1988

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ كيف.. يا لضعفي.. كيف أضعتها.. كيف؟!.

... تسرب مع تسعة رفاق قاصدين الجبل الأبيض. ارتدوا الليل ستاراً، وتسللوا بين مواضع الجنود السفرية المنتشرة في كل مكان.. ضاقت أنفاسهم برائحة الليل المكتظة بروائح الحقول المحروثة والبارود وبقايا غازات الكيمياء. وزاد وحشتهم وحشةً المرور بأكوام الحجارة التي كانت بيوتاً.. يختبئون في النهار، ويتلمسون أشياء الأرض في حلكة الليل بأطراف أقدامهم المتوجسة، الباحثة عن مستقر لقدم. كان داود يسير وجل القلب.. دوخته روائح أجساد بشرية متعفنة تحملها ريح خفيفة.. روائح شرسة تضرب أنفه بين آونة وأخرى فيردد بذات نفسه.

ـ.. يا للرائحة.. يا للعفن.. يا للمصير.. أ أكون جثة منسية في وحشة ليل الجبل؟.. لا.. لا..

سها شارداً.. ضيع موضع قدمه فانزلقت حينما داس حصاة مدورة . همس من خلفه:

ـ دون صوت.. يا داود.

نفث زفيراً طويلاً طارداً تلك الروائح العفنة.. حث خطاه بحذر.. أصطدم بكتلة داكنة لينة.

ـ أنتبه.. النقطة قريبة.. جسر الداودية تحتها.. اجهد نفسك.. وتأكد من موضع قدمك.

تقاطروا بصمت.. ارتجفت ساقاه.. خطا.. خشخشة أوراق تتكسر في هداة الليل.. جمد لحظة.. عاود السير.. عند عنق الجسر هوت قدمه في حفرة صغيرة فأختل توازنه.. طب..

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سكون... لهاث... حفيف أقدام.. لهاث.. صوت سحب أقسام..

ـ من هنا؟!.

..

ـمن؟!.

لعلع الرصاص قريباً. غريزياً أندفع بجسده إلى منحدرٍ صخري حاد مظلم، تدحرج.. اللعنة.. بندقيتي.. فردة حذائي.. تقلب.. احتكاك حديد بصخور المنحدر.. أستقر عند حافة المجرى السريع الضحل.. خبط بذراعيه خبطات مجنونة.. سأعثر عليها.. سأعثر. زحف باضطراب نحو كل الجهات وأصابعه المتشنجة تنقر الصخر.. يا للمصيبة سيمسكونني مثل دجاجة.. البندقية.. البندقية.. البندقية يا رب الليل.. أقدام تركض.. ضجة جسد يتدحرج.. أزيز رصاص.. شتائم بذيئة.. طقطقة بندقية تحتك بالصخر. هدير المجرى السريع.. همس مضطرب.. صراخ الجنود الهستيري.. بندقيتي.. أكتظ الليل بروائح الموت.. لا أريد. ضرب بكفيه المجنونتين الصخر بيأس.. الوقت.. الوقت.. سأهرب.. سأهرب.. حاول النهوض.. خذلته ساقاه.. يا رب الضجيج ساعدني.. ساعدني.. وجذبته ذراعان قويتان من كتفيه. شبكت أصابعه أصابع متماسكة آسرةً الرجفة.. وسحبته ركضاً.. ركضاً باتجاه معاكس لمجرى الماء.. مبتعدين عن صوت الرصاص والضجة.

ـ أسترح

تحررت أصابعه فاستلقى على الصخور الباردة. أنتبه إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منقذه المتمدد إلى جانبه لاهث النفاس. دقق النظر لمعرفة من يكون..

ـ صلاح.. يا حبيبي.. يا صلاح!.

وظلا ينتظران.. يتأملان باب الظلمة الكثيفة.. فانفتحت عن أربعة رفاق. أما البقية فقد أخذهم جوف الليل وضجة الرصاص.. وهدير المجرى.. استردوا أنفاسهم. وبعدما يئسوا من الآخرين، تحركوا.. تطاردهم أشباح الظلام دون دلالة يبحثون عن مكان آمن. تحاشوا مواقد نيران الجنود المنتشرين في السهول والتلال والأودية. أدمت قدميه الأشواك المدببة والصخور المسننة الحواف وجعلته يداه العاريتان من السلاح وقدمه الحافية يشعر بصغره ضآلته.

ـ.. ما أنا.. ما أنا الآن سوى نملة.. نملة.. نملة..

تقلص بمكانه بين الشجرتين، وطائرتا هليكوبتر ظهرتا خلف القمة المقابلة البعيدة. اتجهتا صوب موضع اختبائهم.. أذابه الضجيج المقترب وتمنى لو ارتشفته الصخرة. الطائرتان انخفضتا حتى لاصقتا كتف التل المقابل وألقتا ما ببطنيهما من جنود انتشروا ببدلاتهم المرقطة.. شاهرين أسلحتهم.. وطفقوا يمشطون التل متجهين نحو قرية مهجورة قريبة. خمش وجه بأصابع مرتعشة:

ـ... سيعبرون إلى جهتنا.. يا رب الجند.. ماذا أعمل؟.. ماذا سيأسرونني مثل نعامة.. يا للكارثة.. ماذا سيفعلون بيّ؟.. ماذا؟.

أنفرد أحد الجنود وعبر المنخفض الضيق الفاصل بين

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الكتفين. أطبق أجفانه وأخذ جسده بالاهتزاز.. الجندي يقترب.. صار وقع بسطاله الثقيل واضحاً. باعد ما بين أجفانه ببطء.. تحجرت حدقتاه على لون البسطال الأسود القريب.

- لا أطيق.. لا أطيق.. سأنفجر.. سأنفجر.. سأنفجر.. سأفج الأغصان وأظهر رافعاً ذراعي.. سأفعلها.. وليجر.. ما يجري... سأفـ..!!!.

- لا.. لا.. أصبر.. أصبر لدقائق.. يا داود.

استدار الجندي مقتفياً أثر فصيلته.. تباطأت أنفاسه المتقطعة.. وسكن ارتعاش أطرافه.. أرتكز بكوعه سانداً رأسه إلى ساق الشجيرة.. نظر إلى جلدة مخزن عتاده المشدودة بخيوط نايلون إلى قدمه اليسرى المتورمة.. تخافتت أصوات الجنود شيئاً فشيئاً حتى انقطعت، فساد صمت منتصف النهار لا يعكره سوى أصوات قصف مدفعي بعيد... وإطلاقات متقطعة. أستشعر الوحشة، أظهر رأسه متفحصاً حواليه.. سكون قاتل ينيخ على الأشياء. أستثقل وحدته، فغادر موقعه زحفاً يقصد مكان اختفاء رفيقين قريبين. أنخلع قلبه حينما وجد الموضع خالياً.. أدار طرفه.. نادى بخفوت..

- حمزة.. أوميد!.

جاوبه صمت الحرائق التي شبت في التل المقابل.

- .. أين ذهبا؟!.

تفحص المكان.. على فراش من ورق البلوط تناثرت بقايا أشيائهم، مسجل صغير، بندقية، حقيبة ظهر جلدية، فتات خبز

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يابس، مخازن عتاد، ألبوم صور، بشتين، جمداني.

ـ أيكونا قد؟!.

طوح به الهاجس.. أستيقن شراً.. انحلت مفاصله وخيول الليلة الماضية سمع دوي حوافرها المنعّلة قوياً يجول صداه في بقايا روحه.. ارتمى متلقفاً البندقية المعفرة بالتراب، حضنها بلهفة وكر زاحفاً نحو البقية، وجدهم لابثين بأمكنتهم.

ـ ها.. داوود!.

ـ حمزة.. أوميد.. تركا أشياءهما واختفيا!.

باغتهم الخبر.. اختلجت شفاههم المشققة بصمت، سكنت شفتا صلاح ثم تحركتا بصعوبة.

ـ أ بحثت عنهما؟!.

ـ دون جدوى!.

قال هوشيار:

ـ يحتمل أنهما سلما!.

كلحت وجوههم المتيبسة لقوله، غلى داود غضباً وقال:

ـ الكلبان.. قد يدلان على مكاننا. آخ لو عرفت بعزمهما.. لخنقتهما!.

بارتباك أسرعوا منسلين واحداً.. واحداً، حول تل صغير أفضى بهم إلى بطن وادٍ ضيق جاف. لاذوا خلف صخرة كبيرة متحلقين، قال يعقوب:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ ما العمل يا رفاق؟!.

.. كان من المفترض أن يستلم أوميد الدلالة ليؤمن وصولهم.

التفت صلاح إلى داود قائلاً:

ـ أ تستطيع الوصول بنا إلى الجبل الأبيض؟.

ـ لا..!.

ركد الصمت موجعاً على الأربعة. بادر صلاح بهدوء:

ـ لم يبق لدينا خيار سوى محاولة العودة إلى "كارا" للالتحاق بالرفاق!.

لزم داود الصمت وراقب بطرف عينيه وجهي يعقوب وهوشيار اللذين انفرجا للفكرة. أستطرد صلاح:

ـ داود أنت الدليل.. الحركة بعد غروب الشمس.

ـ ...

ـ لننتشر..

انطوى داود وحيداً.. لاجئاً إلى فسحة ضيقة بين صخرتين متلاصقتين من الأعلى، قاتم الوجه، ترك مؤخرة رأسه تستند إلى جدار الصخرة المائل.

ـ نعود.. نعود.. نعود!.

وضرب فخذه بباطن كفه.

ـ.. وإلى مَ نعود؟.. مرة أخرى حيث الحصار.. والدوران في حلقة مفرغة.. لا ماء.. لا خبز.. لا مأوى.. لا بشر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى مَ نبقى؟ هذا فيما إذا نجحنا باجتياز المعسكرات والربايا والنقاط المتحركة والشوارع المبلطة الجيدة التحصين.. والجنود المنتشرين كالنمل في بطون الوديان وظهورها.. وعلى القمم والتلال.. يا للمصيبة.. وماذا بعد كارا؟. ماذا؟.. ماذا؟.. لا أطيق.. لا أطيق.. هانحن بقينا أربعة من عشرة بعد ستة أيام.. قد نقع في كمين.. ها آنذا حينما أتخيل الموقف تموت يداي ولا أقوى على رفع البندقية.. سيلقون القبض علي.. سأرى جهنم.. سأ.. سأ.. بم أقاوم؟.. خواء.. خواء في خواءِ، ففي ليلة وضحاها فرغت القرى وصار ذلك الامتلاء والزهو خواءً قاحلاً مثل أرض جذبة.. ذليلة، وأعود إلى كارا وبرد ليل القمة، ثم ما جدوى ذلك. وإلى مَ نبقى بين ثنايا جبلٍ أجرد من البشر؟.

ـ إيه.. إيه يا داود.. لو أنك سمعت كلام أمك!.

ـ أبقْ يا بني.. لا ترمِ نفسك إلى التهلكة.

ـ يا تهلكة.. أتردين موتي في الحرب.

ـ ليس كل الجنود تموت.

ـ وإذا متُ.

ودعها باكياً.. والتحق بالأنصار حالماً بيوم الخلاص، لكن هاهي أحلامه تتبدد كهشيم في الريح.. فالحرب انطوت مخلفة أحزانها، فألقى الجيش ثقله الهائل على كردستان. أنتشر يخرب القرى، يسرق، يقتل بالخردل والسيانيد الأطفال والنساء، الأبقار والأشجار، وعيون الأنصار منكسرة ترى الفظائع وتطبق أجفانها لوعةً.. غير قادرين على صد تلك الجموع.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كيف المخرج من كل هذا؟ وإلى مَ تبقى يا داود؟.. حال المتسول أفضل من حالك!.. ستموت جوعاً وبرداً فالشتاء على الأبواب.. وما أنت؟.. ما أنت.. هيه.. ما أنت؟.. سوى قملة تقصعها أصابع السلطة الفولاذية.. أنجْ بنفسك.. أنجْ.. تسلل بهدوء.. أترك سلاحك.. وسلم نفسك قبل أن ينتهي موعد العفو.. عدْ إلى بيت أهلك.. ودفئه، تخلص من كوابيس نومك.. من خيول مجنونة تسعى لسحقك.. أترك كل شيء.. كل شيء.. أخلد إلى غرفتك ولا تبارحها.. أشبع نوماً وخبزاً ودفئاً.

... أ أكون سافلاً؟... نذلاً إلى هذا الحد؟ أتسلل خفية وأغدر برفاقي الذين شاركوني الهموم والخبز والخوف والمحبة. تمعن في الأمر جيداً.. أوجدت أكثر منهم دفئاً وطيباً؟ أشعرت بالطمأنينة قرب سواهم؟.. لا.. لا تكن نذلاً يا داود.. لا..

... ما النذالة في الأمر؟.. أنت لست نذلاً.. بل خجولاً.. انزعْ خجلك وكنْ جريئاً مرة واحدة من أجل سلامتك.. ثم ماذا؟.. فهذه حدود طاقتك.. وذلك أسلم لك من الأسر، فلو وقعت بين أيديهم سيعذبونك عذاباً أليماً قبل قتلك..ثم أنت لست الوحيد الذي سلم نفسه، فقبل سويعات سلم اثنان.. وكفا نفسيهما الخوف وعذاب الجوع والتشرد. أحزم أمركَ يا داود.. لا تضيع عمرك هباء.. فالعمر يعاش مرة واحدة، ومرّتكَ.. كيف عشتها؟.. أ سألت نفسك هذا السؤال؟. لم تزل شاباً ابن الخامسة والعشرين.. ماذا رأيت بعمرك القصير؟ ما أن أكملت الإعدادية حتى ساقوك جندياً إلى الجبهات.. أحرقتك سهوب البصرة بحرّها.. وأطرشتك انفجارات القذائف الماطرة.. وبرد شتاءات الجبهة ينام بأضلاعك حتى الآن.. لو.. لو.. لو صبرت سنة واحدة..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سنة واحدة فقط.. لو انصعت لمشورة أمك.. لما وجدت نفسك بهذا المأزق.. أحزم أمرك.. احزم.. فخلف فتحة الوادي معسكر مؤقت.. قل لهم ـ كنت هارباً.. وعدت نادماً ملبياً نداء عفوكم.. هيا.. تزحزح عن مكانك.. هيا.. آواه.. ما أثقل قدميك.. هيا.. هيا..

ـ لا.. لا.. لا.. لا.. لا..

حاصرته وجوه رفاقه الثلاثة المتيبسة.. وعيونهم الغائرة. صلاح بأنفه الطويل وقسماته الهادئة.. وصلعته التي أخذت مقدمة رأسه حتى وسطه، هوشيار بعينيه الناعستين وزغب لحيته الناعم وصوته الخافت، يعقوب الذي يشبه أباه بفوديه المشتعلين شيباً ونظارته الطبية التي انفطرت إحدى عدستيها في ضجة الليلة الفائتة.

... أ أغدر بأبي؟ أ أتركه ضائعاً بين جبالٍ محشوة بنمل الخليفة السام.. بئس الولد العاق أنا.. وسحقاً لي إن فعلتها.. لو فعلتها ماذا يبقى في داخلي من إنسان؟.. ماذا؟.. لكن.. لكنني عييت يا أحبائي.. تعبت.. تعبت.. والله تعبت.. لم يعد باستطاعتي التحمل.. سأخبركم.. أخبركم.. وأرجو أن تفهموني.. تقدروا وضعي وأكون حينذاك قد أرضيت بقايا ضميري المجهد.

ـ لا.. لا.. يا داود.. أي أحمق ستكونه لو فعلتها.. وأخبرتهم.. سيغدرون بك.. يقتلونك.

ـ.. أو يفعلونها؟!.. لا.. لا .. إنهم أنبل من ذلك وأشرف..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ أي نبل في الضرورات أيها الأحمق!. أنت أول من تمنى قتل حمزة وأوميد.. ها خزنت لسانك؟!.. أ فلم يجئك خبر القطة التي حوصرت في غرفة مقفلة؟.. كيف وثبت نحو محاصرها حينما يئست من خلاص وجزت عنقه ثم قتلها أهل القتيل، كذلك هم الآن.. مثل القطة المحصورة.. وحدك تعرف طريق العودة.. ها.. أتجد في هذا المنطق هنة؟.. هيا أرسْ على بر أمانك.. تسلل بهدوء.. بهدوء.. هيا.. أستعجل!..

ـ.. وأصير غادراً.. نذلاً.. قاتلاً.. أستحق القتل بيد أحبائي.. من حملوني على أكتافهم الناحلة حينما اخترقت رصاصتان فخذي أثناء اقتحام قرية شيخكة، عشرات الأميال حتى أوصلوني إلى مكان أمين..

يا رب الجبل.. أيها القاسي.. ماذا أفعل؟ ماذا؟.. ماذا؟.. ماذا؟..

نطح برأسه جدار الصخرة فشجت جبهته. أمرَّ أطراف أصابعه على الجرح فابتلت بدمه الدافئ.. تأمله طويلاً:

ـ نذل.. نذل.. نذل.. نذل..

وانقبضت نفسه.. تكور.. تكور.. وودّ لو يتحجر.. يصير صخرة ثالثة لا تأبه لما يدور حولها.

ـ ما أسعد قلبك يا صخرة؟.. ما أبرد رأسك؟.. ما ..

ـ أحسم أمرك يا داود. أمامك متسع من الوقت.. والوادي سالك حيث الأهل وراحة البال.. دون حرب.. دون خوف.. دون تشرد.. انفضْ يدك من كل شيء.. تحلحل يا داود.. وأطوِ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وراءك كل ما رأيته خلال سنة الجبل الصعبة.. وعش حياتك.

- لا.. لا... إنه الغدر.. لا أستطيعه... لا أستطيعه.. لا.. أستطيعه.

جلس متربعاً. استقام بجذعه.

- ... سأخبرهم.

- ... يقتلونك.

- ... سأخبرهم.

- ... يقتلونك.

- ... سأخبرهم.. قلت.. سأخبرهم.. سأخبرهم.

- ... سيلينون لك الكلام حتى يستقر قلبك المضطرب ثم يأخذونك غرة خنقاً دون صوت.

- ... لا.. سأقول.. هم أنبل من أن يفعلونها... لا.. لن أغدر بتلك الوجوه المغضنة.. الصابرة.. الأليفة.. الحبيبة التي قاسمتني كل ما تملك.. حتى دم القلب.. سأعتذر لهم من قلبي المنهك.. سيقبلون اعتذاري.. خبرتهم جيداً.. سيقبلون.. آخ.. يا لضعفي كم أحبهم؟.. كم؟.. أذوب بهم وجداً.. أذوب.. أذوب.. لو.. باستطاعتي لبقيت.. أفهموني يا أحبتي.. أرجوكم.. لا أريد الموت جوعاً في جبالٍ مقفرة.. الشتاء على الأبواب.. لولا قلبي المخذول.. لبقيت.. وصرت أسعد الناس.. سأخبرهم.. سأخبرهم.

- .. أحمق.. تسعى إلى حتفك..

- .. مستحيل.. مستحيل.. هم لا يفعلونها.. فقد لمست قلوبهم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لمس اليد.. وذابت أصابعي فرط رقتها..

- .. أحمق مثل شاعر يا داود. تتغزل بمن سيجهز عليك.. يا ابن الملوح المسكين.. لو أعملت التفكير قليلاً.. فكر بما سيحدث لك.. قلّب الفكرة.. أسرع.. لا تتوان.. فأمامك الوادي سالكاً.. وخلاصك لا يبعد سوى عشر دقائق أو أقل.. هيا.. أرم خطوتك الأولى.. تشجع.

- لا.. لا.. لستُ نذلاً.. لست.. لست.

- .. أحمق.. أحمق.. الوادي يدعوك.. يدعوك..

- .. لستُ نذلاً.. لستُ.

توكأ على كفيه، نهض.. رمق امتداد الوادي.

-.. الوادي يدعوك.. هيا.. هيا..

رمى خطوة واحدة.. تسمرت قدماه.

-.. أ تفعلها يا نذل؟!.

غيّر اتجاهه.

- .. هيا يا روحي أرضِ ما تبقى ممن ضميرك المهترئ.. هيا.. ها هم يستظلون بفيء صخرة هرمة.

-... أحتطْ يا أحمق.. لا تلاصقهم.

ثبتَ على بعد مترين.. مرتجف الساقين.

- ها.. رفيق!..

حاصرته العيون المتعبة المتسائلة، جعلته يشحب تارة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ويحمر أخرى.. نذل.. نذل تجول في صمته المائر بالخجل والخشية:

ـ.. لستُ نذلاً.. لستُ.. لكنني عييت.. أُنهكتُ.

ـ أحمق.. أحمق.. أخزن لسانك.. أخزنْ.. جدْ لهم عذراً مختلفاً.

ـ أ تحتاج إلى خبز؟!

خذلته ساقاه.. كاد أن يتكوم على الأرض.

ـ ... ليتني يا أحبائي جئتكم بسبب ذلك..

ـ .. لا تكن غبياً.. هاهم وجدوا لك عذراً.. قلْ نعم!.

ـ .. لا.. لا.. لستُ كاذباً.. سأفصح عن عزمي.. سأخبـــــــ..

وبعسر بالغ نطق بالكلمة بصوت خافت مرتجف:

ـ سأسلم!..

ـ ..

نقر الصمت وجه الثلاثة. جحظت أعينهم، وترامقوا بجزع.

ـ.. بليد... بليد... فعلتها. خذ حذرك إذن.. أترى؟ لقد انخسفت قسماتهم.. أحتطْ.

رجع إلى الخلف خطوة أخرى، وأدخل إبهامه في تجويف الزناد.

ـ .. ها ندمت.. لو أخذت بنصيحتي وسلكت الوادي خفية.. لو..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حط عصفور على صخرة قريبة، وزقزق غير آبه بما يفور في نفوس الرجال الأربعة، تمالك يعقوب قواه وقال:

ـ ذلك حقك.. لكن..

ورفع يديه إلى رأسه عاصراً صدغيه بإبهامه وسبابته كمن يعاني صداعاً شديداً، ثم رشقه بنظرة عتب عبر نظارته الطبية البائسة، أردف وبصوته رجفة ذكرته بصوت أبيه:

ـ نحن الثلاثة لا نعرفُ طريق العودة.. أيقبل ضميرك؟!.

تصدعت نفسه.. خنقته عبرة.

ـ.. لست بلا ضمير.. لست.. لكن يا أبي.. لكن.

ابتلتْ أجفانه.

ـ .. أحذر.. أحذر.. أنهم يدركون نقاط ضعفك.. هاهم يلينون لك الكلام.. يداهنونك.. ثم سيمكرون بك!..

قال هوشيار:

ـ التسليم من هذا الموقع خيانة يا داود.

ـ .. ها .. ألم أقل لك؟.. فكر بهذه اللهجة.. ظاهرها تأنيب.. وباطنها تهديد!.

رمقهم بريبة.

قال صلاح:

ـ لو تعبّرنا يا داود شارع "سوراة توكه"

ـ .. أحذر.. فبعد التهديد المبطن.. هاهم يحاولون مسج

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شباكهم حولك حتى تطمئن.. تيقظ سينقضون عليك.

قال يعقوب برقة:

ـ سوف لا ننسى ذلك ما حيينا.

ـ.. لا.. لا.. لا تتوسلوا ليَّ، لا.. فأنا لستُ سوى حشرة.. أستأهل احتقاركم يا أحبتي.

قال صلاح:

ـ بعد العبور اذهب حيث تشاء.

ـ .. لست بلا ضمير.. نعم سأخاطر للمرة الأخيرة.. وأكون إنساناً.

ـ .. لا.. لا.. لا تفعل ذلك، قل لهم نعم وتسلل خفيةً!.

ـ .. لا.. لا.. سأكون نذلاً مرتين.

قال:

ـ سأعبِّركم.

رنا إلى وجوههم متفحصاً، فلاحظ سروراً مراً تراقص بثنايا تقاطيعهم المتخشبة، أردف:

ـ الحركة بعد غياب الشمس.

وأنسحب لائذاً بين صخرتيه، نظر إلى الشمس التي غطس نصفها خلف قمة بعيدة، نهرها قائلاً:

ـ أغربي يا سافلة.. أغربي.. حتى أنفض يدي من الأمر.

ـ.. أي انفضاض يا أحمق.. سيغدرون بك في الوقت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المناسب.. وبالضبط بعد عبور الشارع.. فأنت سوف تنتقل إلى صف الأعداء منذ تلك اللحظة.. خذ حذرك..

-..لا.. لا.. الغدر ليس من شيمهم.

في عتمة الليل جدوا بالمسير. كان حذراً يجعل المسافة الفاصلة بينه وبينهم غير كافيه لمن تسول له نفسه أخذه على حين غرة. أطعمه يعقوب خبزاً حين جاع. سقاه صلاح ما تبقى من وشل زمزميته.

- .. يا لي من سافل.. يا لي.. يا أنبل الناس.. يا أجمل الناس.. يا أعزهم.. قلبي ضيق ليس كقلوبكم.. وروحي هشة ليست كأرواحكم الصلبة.. وأنت يا أيها المسن كم يشعرني خبزك بالعار..

- .. أصحَ.. لا تضف إلى حمقك غباءَ.. وتخلد إلى الطمأنينة.. أحذر.. ماداموا بحاجة إليك.. يصيرون بين يديك أيسر من الماء في مجرى وادٍ منحدر.

من بين ثلاث ربايا ومدرعتين عبروا الشارع المبلط.

-.. أحذر.. أحذر.. اللحظة الحاسمة حضرتك.. أنت الآن في صف الأعداء..

كان جبل كارا يشهق أمامهم كتلة هائلة من الدكنة، شعر بأنفاسهم الحارة تلفح ظهره وعنقه.

-.. أحذر.. ستخترقك الحراب!.

كاد يصرخ في قعر الليل الحالك الظلام.. و.. الحربة.. ستخترق لحمي.. ستـ.... خـ.. تـ..ر..قـ.. ني!.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وتلقفت ذراعان قويتان كتفه المتخشبة. لانَ على صدر يعقوب الدافئ، المعروق.. واحداً.. واحداً عانقوه بقوة هامسين:

ـ وداعاً.. سوف لا ننساك.

ابتعدوا خطوتين.. ثلاث..

ـ .. يا أحبائي... يا عزَّ نفسي.. يا رفاقي.. سـ.. يـ.. غيييييييـ.. بو.....نَ.. سـ.. سـ..فـ...فـ دوامة دوارة... مدوخة هبطت به إلى عالم خاوٍ.. أخرسَ.. أجوف.. يا رب الليل..يا رب الجبل. وأنتزع نفسه بعناء منزلقاً من حافة الدوامة راكضاً في الظلام..

نيسان 1989

أوردكاه خوي زرعان ـ أورمية ـ إيران

منشورات «ألف باء AlfYaa»

2- رؤيا اليقين

عاد الغائب بقميص مدعوك بأوراق البلوط وفي روحه خريف. لبث ساكناً يلهث وأنفاسه المتلاحقة تنشر روائح دم طري مخلوط بالصخور. رصيف المحطة يمتد طويلاً.. طويلاً ليضيع في الظلام. ذيل القطار المغادر صوب أقصى الجنوب يغيب مخلفاً صدى عويله يتلاشى في سكون منتصف الليل. لم يترجل سواه وبضعة جنود منهكين.

صمت الليل يغور بأحشاء الأبنية المدورة.. حافات الجدران

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الحادة.. المصابيح المتدلية من أعماق أعمدة عالية.. الأبواب الزجاجية المقفلة.. سلالم الأبراج الشاهقة...

أدار طرفه الدامي الحذر. على مساطب حجرية متباعدة أغفى رجال بثيابهم الرثة كالأموات وخلفهم أضاءت مصابيح هائلة الحجم جدارية عريضة يشغل نصفها العلوي الرئيس بوجهه الجاف وبدلته العسكرية المطرزة بالأوسمة وهو يلوح بذراعه مبتسماً بهزء من آلاف البشر المتشابهين الزاحمين أسفل الجدارية كالنمل. تحتها أقعى جندي يتقيأ دون صوت.

ـ أينك يا محطتي؟!.

زادته وحشة المكان كآبة. رمى خطوهُ الناحل ميمماً شطر باب المحطة المفتوح. ضايقته رائحة الطلاء الخانقة وهو يجتاز القاعة الفسيحة الخالية. نفذ خلال باب أوسع ليحتويه سكون شارع طويل. جمد عند حافة الرصيف شاملاً حشد البنايات الشاهقة المتراصة بعينين متأسيتين. أفزعته مئات الثقوب المظلمة الموزعة على الجدران وكأنها عيون ترصد الشارع. توجس من أقبية مظلمة لزجة تخفيها أناقة البناء. تحسس مسدسه المخبوء تحت إبطه. أستعجل خطوه الذي أضطرب. تضيء رأسه حرائق الجبل ويسكن صمته رعد آلاف القذائف والصرخات متجرعاً طعم مرارة لم يغادر فمه منذ ذلك النهار الذي أظلمَّ بدخان الحرائق.. ففي وادٍ ضيق فقد أربعة رفاق حاصرهم الجند المنتشرون بالمئات على السفح. تفرقوا بين الصخور وأشجار البلوط الكثيفة. ضاق الوادي والدنيا لحظة اشتباك النيران. نفدَ عتاده فتوارى في شق شجرة شائخة، ورآهم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتساقطون الواحد بعد الآخر. غادر الجند الوادي حاملين قتلاهم، فخلد قربهم طوال الليل يمسح أجسادهم الممزقة بالتراب والدمع. تسلل إلى أطراف الموصل متستراً بالظلام. قصد المحطة وركب قطار الجنوب لائذاً بزاوية عربة مزدحمة بالجنود يغطيه غبار أيام صعبة، حالماً طوال الطريق الطويل بملجأٍ يأويه.. جك.. جك.. جك.. ترن في صمت الليل البهيم المترامي خلف زجاج النافذة.. ليل ساكن.. ليل آخر أحمق يأخذه إلى الجنوب المجهول.. الجنوب الحلم الذي غادره منذ عشر سنين.

دوخته الأرصفة المسفلتة.. المتشابهة.. والجداريات المكررة عند مدخل الشوارع.. والحدائق المسجونة بمشبكات الحديد. دار مستوحشاً.. تائهاً.. خائفاً، والمدينة اختلفت عليه بشوارعها ودوائرها ومثلثاتها وأعمدتها وبناياتها ونوافذها وصمتها وخوائها وأضويتها ورائحتها وسمائها الخانقة.

هبت نسمة من جهة خلاء مظلم بعيد حاملة إليه رائحة أليفة. اجتذبته فتوغل في الدكنة مبتعداً عن البنايات. تكاثر عبق تلك الرائحة موقظاً بذاكرته أشياء قديمة.. قديمة جداً.. فيء جدار.. شجرة سدر هرمة ملطخة بأكف الحناء.. غرف عتيقة.. وجه أبيه.. فناء مدرسته الابتدائية.. ضجيج شارعهم الأليف.... "أم سريع" تبيع التفاح الموضوع في سلة خوص مهترئة، أبو علي ودكانه الخفيض، حامد عزرة الذي يترك اللعب متعثراً بركضته صوب سلم سطح بيتهم الواطئ وهو يصيح "الشاهين.. طيوري" حاج خضير مصلح إطارات السيارات الأعور السكير يتمايل وسط الشارع وزوجته بدرية الشكسة تدفعه بعصبية نحو البيت فيتكوم على العتبة، فاتن الفاتنة، زوجة الحلاق الأحوال، ذات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العينين العسليتين تهمس له:

ـ تسلل ليلا.. سأترك الباب مفتوحاً.

ورغبتها التي تركها تستعر خلفه دون ارتواء.. أشياء.. وأشياء أليفة جداً.. قديمة جداً.. أتت بها تلك الرائحة فأسكنت من روعه قليلا.

لاحت لعينيه التعبتين الحالمتين ظلال أضواء خافتة في البعيد. التفت خلفه. أضواء البنايات تضاءلت لتظهر بوضوح السماء الشاسعة المنارة بمصابيح النجوم الفضية الكثيفة. حث الخطى مستدلا بخيط الرائحة الأليفة. ألقته حافة الحلكة إلى مدخل زقاق عتيق مهمل كأنه قطعة مهشمة.. نسيها الكون. تشمم طابوق الجدران المفتت، والأبواب الخشبية المتآكلة. أستوقفه باب محفور بأعماقه الدفينة. تمعّن في ظلاله الكابية على ضوء النجوم، فتعرف على باب بيت جده القديم. أخذ قلبه ينبض بالحنين، وأطراف أنامله المنتفضة تجوس ماسحة صدأ كراتٍ نحاسية ترصع جسده. التصق لاثما لونه الأغبر وعاباً من عبق الخشب الآسر. الباب أصبح خفيضاً جداً بالغ القدم. دفعه بأناة. أزَّ مطلقاً صريرا متقطعاً. ولج فجوة الممر الحالكة وجده طويلاً.. طويلاً وكأنه يمتد إلى أخر الدنيا.أبحرت ذراعه في الفراغ المظلم واستقرت على الجدار الرطب. سار لصقه متحسساً براحة كفه لزوجة الطابوق. رؤوس أصابعه تتموج هاوية إلى قيعان ثقوب كثار صاعدة قمم تلال صغيرة، منحدرة نحو أودية ضيقة. السقف خفيض جداً يلامس في بعض المواقع شعره. خبط بتؤدة في العتمة. وبعد مسير طويل استبانت لعينيه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المفتوحتين على اتساعهما قطعة نور بحجم الكف. ذكره الضوء الشحيح بضوء القرى اللاطية في السفوح، وتضاريس الجدار بالمسير في ليل الجبل، ولزوجته بأقبية التعذيب. مع كل خطوة متوجسة كانت الفتحة تتسع والضوء الهزيل يكبر موضحاً حافة الممر. الهدوء يرين على البيت ويجعله أكثر وحشةً.

ـ لعلهم يغطون في النوم، فالساعة متأخرة الآن!.

تريث قليلا عند نهاية الممر متحسساً بمقدمة حذائه الدكة التي يتذكرها جيداً. عَبَرَ إلى الطارمة الواطئة السقف. ترامى أمامه حوش الدار فسيحاً. تباطأت ضربات قلبه فاتكأ إلى عامود الطارمة الخشبي السميك منهكاً. أرخى أجفانه لبرهة. تهالك إلى تراب الأرضية جالساً. تسرب إلى سمعه صدى صرخات مخنوقة لامرأة تتمزق تبعها ضجة نسوة يستغثن بأرواح أئمة صالحين. أنتبه مباعدا أجفانه الذابلة. أصاخ السمع، ليس غير ليل مبحرٍ بدوي السكون. دَوَرَ عينيه الكليلتين بأرجاء الدار. قبالته في الطرف الآخر تركنُ غرف الدار الأربع بأسقفها الواطئة. تذكر بوضوح أبوابها الخشبية العتيقة. كان ضوء فانوس شحيح مرتعش يتسرب من أول غرفة. يغدو ويروح فيه ظل امرأة طويل. ضم ساقيه المنثنيتين إلى صدره وانشأ يحدق بظلال أشياء الغرفة من بابها المفتوح مذهولا بصمت الكون المتكدس في الحوش والغرفة ورأسه. ظل المرأة أقترب من مجال رؤيته. ظهرت وسط الغرفة مولية ظهرها ناحيته، ثوبها الأسود الفضفاض ينشر أذياله على الأرض. أوقدت عود ثقاب وأشعلت فتيل شموع بيضاء صُفت على هيئة دوائر تسور صينية نحاسية كبيرة من محيطها حتى مركزها الفارغ، الصينية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

موضوعة فوق ضريح ملفوف بثوب أخضر مقام وسط الغرفة. ضوأت الشموع باقتي آسٍ مرتبة على جانبي الشاهد الملون بأكف الحناء. استدارت المرأة. أصبحت بمواجهته فاستبانت ملامحها بوضوح. عصف بكيانه حنين فارس عاد لتوه منكسراً من حرب طويلة.. مريرة. كاد يقفز راكضاً إلى مسافاتها ليغيب. كانت تلف شعرها بفوطة بيضاء. نفس الفوطة التي كانت ترتديها لحظة وداعه قبل عشر سنين. نفرت من أطرافها خصلات بيضاء.

ـ يا.. لوجهك المشع.. المهيب.. ماذا جرى؟.. ماذا؟!

أصطبر ماكثا بمكانه يتابع بقلق ما تفعله، تحركت بصمت نحو يسار الغرفة غائبة عن ناظريه. مادَ به الوجد وخنق أنفاسه. عادت تسير بمهلٍ ماسكةً بكفها البيضاء آنية من الخزف يعكس جداراها المحدب ضوء الشموع المتراقص. نفضتها فوق الضريح نفضات متقطعة فانتثر من نهاية عنقها الطويل المثقب رذاذ نشر في هواء الحوش عبير وردٍ عبق. وضعت الآنية بمركز الصينية الفارغ بين أصابع الشمع الساخنة. فركت وريقات آس بشاهد الضريح. أشعلت أعواد بخورٍ مغروزة بطاسة مليئة بعجين الحناء، فأكتظ الكون ونفسه برائحة البخور الممزوجة بالورد والآس والحناء. تناولت بتريثٍ سجادة ملفوفة ومركونة إلى الجدار. فرشتها أمام الضريح. ضبطت موضع التربة بحافتها، وكومت قربها مسبحة سوداء ناعمة الخرز. ارتدت ملاءتها الناصعة البياض. سكنت واقفةً على السجادة مسبلة الذراعين، وانغمرت بالصلاة. تأمل مسحوراً حركاتها البطيئة. ذراعاها الممدودتان بضراعة، استكتافها المستكين،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ركوعها، سجودها، قيامها، قعودها. انسكبت بنفسه المضطربة السكينة ، فهوم مسبلاً أجفانه. أيقظهُ لفح أنفاس ساخنة ضرب وجنتيه وذيل نداءات تستغيث بالرب غاب في الصمت. حدق في الغرفة، فوجدها قد فرغت من الصلاة، وجعلت تمسح بباطن كفها بشرة وجهها المغضنة. توكأت على كفيها ناهضة. دنت من القبر. مالت على الشاهد ولثمته، ارتدت خطوتين إلى الخلف. انحنت حتى كادت تلامس فراش الأرض. اختفت عن ناظريه، ثم ظهرت من فتحة الباب وبيدها فانوس يهتز. أنتشر الضوء الهزيل ملقياً على أشياء الحوش ظلالاً مرتعشة، فأهتزت بصمت أغصان السدر العارية والجدران. لبست الأشياء ثوبا كالحاً لحظة دخولها الغرفة الثانية. أخذته الرهبة حينما انهمكت بإيقاد الشموع والبخور ورش ماء الورد وفرك الآس على ضريحٍ ثانٍ يشغل موضع الضريح الأول. فرشت السجادة المركونة إلى جدارها بنفس موقع السجادة في الغرفة الأولى. صلت.. سبّحت.. قبّلت الشاهد. حملت الفانوس واتجهت نحو الباب. فعلت في الغرفتين الباقيتين مثل ما فعلت، ثم طلعت إلى الحوش. انحرفت جانباً إلى بناء مدور أرتفع بمقدار نصف متر عن الأرض. علقت الفانوس على بروزٍ في خشبةٍ تقوست فوق البناء. سحبت بكلتا يديها بعناء حبلاً طويلاً ظهر في نهايته دلو يفيض الماء من حافته. دلقته في فوهة إبريق خزف طويل العنق. رجعت إلى الغرف. أبدلت ماء الآس القديم، واستقرت متربعة على سجادة الصلاة الحمراء النظيفة في الغرفة الأولى. رفعت ذراعيها بضراعة شاخصة ببصرها إلى الباب وتدفق صوتها المتهدج، الشجي، غامراً بدنه المتطوي لصق عامود

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الطارمة بقشعريرة الرهبة.

" ... اللهم.. أنا عبدك المسكين.. المستكين.. الضعيف.. الفقير.. الذليل الحقير.. الخائف.. المستجير...

... اللهم... إني أسألك أن تغمر أرواح النائمين إلى جواري بالسلام.

... اللهم إني قد منحتهم بركاتي.. وكانوا أشجاراً أثمرت للناس ثمرات طيب.

... اللهم برّني بالوحيد الغائب.. الحاضر.. لا تذله.. وأدرأ عنه الشرور. وأعم عنه بصر الحاكم الفاجر..

... اللهم... أصرف عن نفسه السوء.. وأجعله شجرة طيب ثمرها.

... اللهم... أذل الحاكم الفاجر.. وأأمن الناس من شره وضره.. فقد أغرقنا بالدم والحزن...

اجعل غضبك يمحقه محقاً لينجو البشر من مصائده وكيده... فأنت العزيز... الحكيم.

آمين رب العالمين."

مسحت وجهها براحة كفها. مدت يدها بصمت وتناولت المسبحة. انهمكت بتسبيح حباتها الناعمة حبة.. حبة وهي تبسمل. جمحه الشوق وأسح به إلى حضنها الدافئ كائناً ليناً تمطر مسامه أحزان الجبل بمسالكه الوعرة، لياليه، ثلجه، صمته، أسراره، وحرائقه..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

" .. يا قديستي المباركة. عدت كئيباً.. مدمّى بأحزاني..

سأعكر صفو وحدتك بأشجاني الكثيرة.. وهمومي.

يا غاليتي

عجنني الجبل بصخوره.. فقسا قلبي.. قتلت الكثير.. اقتحمت ربايا ومعسكرات ومدناً.. حرزت بأنحاء جسدي عشرات الشظايا، تبقع جلدي بحروق الخردل، وفقدت إصبعا من أصابع قدمي بعد أن رمته عاصفة ثلجية بالغنغرينا، توسدت الأحجار، أكلت عشب الأرض، والتحفت النجوم والبرد مصبّراً نفسي وحالماً بعودة ليس مثل هذه العودة"...

أستند على كفيه، استقام بنحول، لم تزل الشيخة الجليلة جالسة على سجادتها الطافية وسط بحر الشموع ودخان البخور وماء الورد وأنفاس الآس وعبق الحناء. أستوقفه صدى صرخاتٍ انبثق من أحشاء الظلمة على هيئة دفقات متقطعة، متباعدة، تلاشت في السكون، فتهادي في مشيته سكران بمزيج الروائح يقطع الحوش المظلم الرطب.

- ".. ضاق بنا الجبل.. فالجيش الراجع لتوه من حرب السنين الثمان دبّ علينا،

دبيب النمل بعد أن رش القرى والأودية والسفوح والقمم بالخردل والسيانيد

والتابون.. آلاف من النسوة والشيوخ والأطفال والأشجار وحيوات الأرض

ماتوا اختناقاً.. آلاف أخرى تقاطرت مزدحمة في الأودية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤدية إلى الحدود

التركية وهم يحملون على ظهور بغالهم ما استطاعوا من مستلزمات الحياة..

بطانيات، دقيق، أواني طبخ، أطفال رضع لا يكفون عن الصريخ.

... وأخرى أسرها الجند وسيقت بأخماص البنادق والركلات إلى عربات

عسكرية.

وبعينيّ هاتين رأيت الجند يدفنون أسرى الأنصار أحياءً..

أما نحن يا ملاكي:

فقد فعلت بنا العزلة فعلتها..

نهشتنا الأحقاد.

فانشغلنا يتسقط الواحد منا أخطاء الأخر

تنابزنا بالألقاب.

وأوغلنا بدماء بعضنا البعض!..

وبالتالي.. وجدنا أنفسنا ساعة الحومة منهكين"

أصبح بمحاذاة سياج البئر، اقتحمته رائحة الماء فذكرته بعبق الينابيع المحتلة البعيدة، وجعلته يغص بكلماته الخافتة، ويسكن للحظة مبحراً في تضاريسها التي كستها الوحدة الطويلة صفاء المتعبد الحزين، ثم نزع حذاءه وسار.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ ".. أتدرين يا لب قلبي، كم مرة رغب الموت عني؟!.

كنتُ أحلم بلحظتي الأخيرة طوال السنين العشر.. وأتخيل أين ستكون.. في ربيئةٍ.. في معسكر.. داخل المدن التي كنا نتسلل إليها ليلاً.. في عاصفة ثلجية.. عند عبور كمائن الشوارع المبلطة.. في قصف مدفعي.. حلمت.. وتخيلت وآلاف الطلقات والقذائف أخطأتني.. إنه قدري يا قديستي أن أبقى حياً لأرى ما بنيناه يتهاوى.. أن أبقى ليغطيني الرماد المتناثر من الجذوة المنطفئة بعيون المقاتلين المحاصرين..

جئتكِ.. قانطاً.. مستوحشاً.. مطارداً.."

اهتزَّ مُنحدراً إلى أعماق الأشياء، وقدماه الحافيتان تدخلان مستطيل الضوء المتسرب من باب الغرفة.. طق.. طق.. طق.. خافتةً تتساقط الواحدة بعد الأخرى.. طق.. ترن في صمت رأسه.. أهلكه تساقط الحبات الرتيب، فتشبث بعضادتي الباب الخفيضة متسارع الأنفاس. أدلى رأسه حتى يكون بمستطاعه رؤيتها. جاستها عيناه الولهتان ولفحتها أنفاسه. رفعت رأسها حيث يقف ساداً بقامته ظلمة الحوش. تجمدت ملامحها. أفلتت أصابعها المسبحة فتكومت على السجادة. عامدت كفها المفتوحة حاجزة ضوء الشموع. ضيقت حدقتيها محدقةً بتركيز من يلاحق شيئاً يتحرك في أفقٍ بعيد.. شيء غير حقيقي... سراب... طائر... ظبي شارد.. ذيل عافته الشمس. أربكته عيون عشرات الغزلان التي مدت أعناقها الطويلة شاخصةَ إليه من سجاداتٍ تزين الجدران.. عيون لامعة، واسعة، عميقة، ذكية. انزاحت خطوتين إلى الخلف. طوت سجادة الصلاة. أركنتها إلى الجدار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

القريب. استدارت قائلة:

ـ أفي حلمٍ جديد أنا؟!.

ـ ..

ـ أهلاً... أهلاً بحلمي البعيد!.

في نبرتها أسىً شفيف وشجن جعلاه يخفق برأسه متمنياً الرقاد في حضنها الدافئ أو الغياب في براري الغزلان البهيجة..

ـ ...

ـ جئت باكراً هذه المرة يا أملي..

ـ أمي.. آ.. ه..آه!.

وسجد لها. انتفضت، اختفى ظلال الحلم من عينيها، هبت إليه راكضةً.. لاهثةً. أنهضته، عانقته وبكت.. ذوبته رائحتها المسكرة وأريج أنفاسها.

ـ لا أصدق... لا أصدق.. أنت بلحمكَ ودمك!.

أنقاد بين ذراعيها أودع من حمامة، أجلسته على بساط تسيح زرقته إلى طرف الغرفة البعيد. جالت كفها تمسد بحنوٍ عنقه، ذراعه، صدره.

ـ يا حبيبي كم هزلت؟!.

كان يصغر بين أصابعها.

ـ أ جائع أنت؟ أ عطشان؟!

ـ إني تعبٌ.. وليس بيّ رغبة للماء والزاد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ أتود الرقاد؟!.

ـ لا.. يا أمي.. حدثيني عما جرى أثناء غيابي.

كان يتشوق للأخبار. تطلعت إليه بصمتٍ ثم قالت:

ـ جرى الكثير.. الكثير.. كم غبتَ يا ولدي؟

ـ ...

ـ دهراً غبت.. استرح الآن.

ـ لمن هذه الضرائح؟

ـ أو لم يخبروك؟!.

ـ ...

ـ التفتْ وأنظر!

أدار وجهه وشخص حيث أشارت. اجتذبته عين غزالٍ أخذت بالاتساع.. في قعرها الصافي العميق تبرك امرأة عارية تتلوى ألماً، يحيط بها حشدٌ من العجائز يرددن نداءات استغاثة " فرج شدتها يا رب.. باب رحمتك يا رب". والمرأة تغرق في بحرٍ من العرق، ثم أعتمت الصورة لتحل مكانها عينان بشرتيان، أمعن النظر فيهما.. فشهق وعرته رعدة حينما تعرف على عيني أخيه الواسعتان المصوبتين إليه من بين عشرات الأحداق. عينان باسمتان تقولان الدنيا. تقصفّ متقلباً بهدير موجٍ مضطرب عاتٍ. وعاد ينظر إليها بقلق.

ـ إنهم يا ولدي أخوتك الثلاثة، وأبوك.. أخذوهم الواحد بعد الآخر قبل خمس سنين!.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أخذوهم وتركوني وحيدة.. أتعبني التجوال بين السجون والمعتقلات، شبعتُ شتماً بذيئاً من رجال غلاظ القلوب.. أضنتني الوحدة.. كدت أموتُ كمداً.. لكنهم نبعوا كل في غرفته.. وجدتهم ذات ليلة يغطون في سباتٍ عميق.. عميق. بحَّ صوتي من كثرة ما دعوتهم للاستيقاظ.. يئستُ فبنيت لهم مسكناً يسترهم الأنظار.. إنهم ينامون الآن يا ولدي... يحلمون،... ينهضون بين الحين والحين أثناء الأسحار بملابسهم الملطخة بالدماء، يحيطون بي.. يسرونني بما رأوه من أهوال في أقبية التعذيب... عن صبرهم على التفريق، والتجويع.. والتسهير.. والإيلام.. عن ظلمتها ورطوبتها وبردها ووحشتها، قالوا: أتدرين لم يرَ أحدنا الآخر إلا هنا!. أشكوهم وحدتي فيؤنسونني بأعذب الكلام.. نتذكرك يا ولدي في كل جلسة، أبثهم مخاوفي.. فيطمئنوني عليك قائلين:

ـ أزيحي عنك الهم.. سيحضر في يومٍ ماطرٍ وسط الحوش ويجلب لقلبك السكينة!

صمتت لهنيهة. أحس بإعياء مباغت أمات أطرافه. ركزت عينيها على كفيه المائعتين والطافيتين على زرقة البساط التي شرعت بالتحرك. صعدت نظرها إلى تقاسيمه التي هرمت تلك اللحظة.

ـ ما هذا الرماد الخانق وجهك يا ولدي؟!

ـ أ أصابك وهنٌ؟

ـ ليس بيّ وهنٌ يا أمي.. لكني مذبوح!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ أنفض عنك الرماد، ودع هذا الشرود، فهيئتك الكئيبة تحزن النائمين إلى جوارنا، قالوا لي مرة: في أنفاق التعذيب لم يثقل قلوبنا سوى فراق الأحبة.. عدا ذلك كنا لا نبدي اهتماما.

دخّنت روحه. أستحثها بصوتٍ متهدج:

ـ ماذا بعد يا أمي؟... أين الجيران.. الأصدقاء؟.. لا صوت... لا.. ضوء.. لا.. ماء.

ـ عن أي جيران تسأل، لقد تغيروا مراراً.. شأنهم شأن الكثير من الأشياء التي اختلفت.. أستبدل البعض أبناءهم الذين قتلوا في الحرب بالدنانير وبيوتٍ حديثة وسيارات. ورحل البعض إلى أماكن مجهولةٍ، وما بقيَّ في ركننا سوى عوائل الفارين من الجبهات، والمعدومين والمعتقلين، والمختفين... ثم تقاطر إلى زاويتنا المهجورة الكثير من الأغراب. عرب.. أكراد.. صابئة.. شيعة.. آثوريون.. عجائز.. شيوخ.. ذوو عاهات.. يتامى.. أرامل.. عاهرات.. مرضى.. زوجات هاربات.. أشجار متروكة.. أعشاب.. أجنة.. قطط.. كلاب.. طيور.. قطعوا عنا الماء والكهرباء..

أتدري يا ولدي.. رغم كل البؤس.. فإنهم يقتحمون ركننا بين الفينة والأخرى بحثاً عن الهاربين من الجبهات.. يفجرون البيوت الخربة.. يعتقلون ساكنيها مع الفار المقبوض عليه.. والهاربون المساكين.. لم تركتموهم؟!.. يُقال إنهم يتحولون نهاراً إلى طيور قمرية ترحل مذعورةً نحو بساتين النخيل البعيدة وقصب الأهوار!.

كان ينصت مطرقاً وقسماته تنبض ألماً يسيل منحدراً مع تيار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السجادة الذي بدأ يفور. أمعنت النظر إلى تكوره المستكين، إلى رذاذ الرماد المتساقط من وجهه..، إلى تعب أصابعه الطويلة الخشنة الغارقة بالزرقة المائجة..

ـ حدثني عن حالك.. ما الذي أتى بك يا ولدي؟!.

فاء إليها ونطق بصوت متحشرجٍ يرشح حزناً:

ـ ضاقت بي السبل يا أمي!.

ـ أخفض.. أخفض صوتك.. إنك تعكر رقادهم.

أدنت أذنها من شفتيه المختلجتين، همس وكأنه يحدث نفسه:

ـ ألا تشمين يا أمي رائحة دم طري وعطر أنفاسٍ حيةٍ وبقايا حديد من قميصي؟!.

ـ ...

ـ دفنت قبل ليلتين جثث أربعة رفاق وبندقيتي وبقيتُ وحيداً، محاصراً، عارياً إلا من مسدسٍ صغير.. فتسللتُ إليكِ متخفياً ومكتظاً بجروحي!..

ـ أش.. أش.. كف.. كف.. اخزن أحزانك..

طفق يرتعشُ مسبلاً أجفانه الذابلة.. ويحلم بالرقاد بين أحشائها الدافئة. احتوت وجهه بكفيها الناعمتين قائلةً:

ـ تطلع في وجهي يا ولدي.

رمشت أجفانه وهو يباعدها صاغراً. أعماه بريق قوي توهج في عينيها، فأسرع بإطباق أجفانه بتوتر. مسحت بأناملها خصلاتٍ شائبةٍ من شعره، ونشفتْ بمنديل يفوح بالمسك جبهته

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المعروقة وقالت:

ـ يا لعذاب عينيك يا ولدي!.

- ...

ـ لِمَ يا ولدي.. لِمَ؟!. لِنتم كثيراً في بادئ الأمر.. ثم تصلبتم كثيراً.. لِمَ؟!..

- ...

ـ ما الذي أخركم في الجبل كل تلك السنين؟!.. تاركين الأشياء تتحرق في انتظاركم.. البذور.. جذور الأعشاب.. المدن.. المحطات.. الأجنة.. العمال.. الجنود.. الفلاحون.. الهاربون.. الأرامل.. اليتامى.. الشهداء.. وكل أشياء الأركان المهملة.. المهجورة.. لم؟!..

- ...

ـ أ أنستم إلى الصخور والأودية البعيدة!.

- ...

ـ وبعد كل هذا الانتظار المر طوال تلك السنين العجاف تعود مستريباً!.

- ...!.

ـ قمْ.. قمْ لأريك شيئاً!.

قادته من ذراعه المرتخية وسارت أمامه على ماء السجادة الفائر، المتدفق نحو زاوية الغرفة البعيدة. شيعته عيون الغزلان الحوراء مستديرةً بأعناقها نحوه. عند حافة الماء دفعت باباً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خفيضاً فأجتاح سمعه لغط نسوةٍ يرددن " يا أبا الحسن أحضرها". ثم ران الصمتُ ثقيلاً. دخلا دهليزاً ضيقاً يسع لشخصين تخفق في ضوئه الأخضر الخافت أجنحة طيور بيضاء زينت جداريه والسقف الواطئ. كان يقتفي أثرها كالسائر في نومه. أوقفته عند نهاية الدهليز. فتحت باباً جانبياً. ارتقت به سلماً خشبياً قصيراً أفضى بهما إلى حجرةٍ خافتة الضوء لا تسع إلا لسرير. اعتلت دكةً مرتفعةً مغطاةً بألواح من الخشب الصقيل لصق الجدار الأيمن. أزاحت ستارة بلون الجدار، فتدفق من نافذةٍ صغيرةٍ مدورةٍ وهجٌ أحمر نورَّ قسماتها وجدران الغرفة المزينة بعشرات الصور الفوتوغرافية لشباب بعمر الورد يشخصون إليه بمرح. أنعشه ألق العيون وأشعره بالرواء.. أراد أن يسألها عن هؤلاء النائمين في الجدران، لكنها همست:

ـ اصعدْ يا ولدي وأنظر!.

أصبح على الدكة، أشرأب عنقه ناظراً خلال النافذة، تزلزل مرتجاً بسيلٍ من الرعشات وعيناه تضيعان في غرفٍ متداخلةٍ تمتد امتداد البصر منارةً بضوء الشموع والفوانيس.. تركض على جدرانها قطعان الظباء.. ووسط كل غرفة أقيم ضريح قربه امرأة بثياب سوداء منهمكة برعايته، بعضهن يرشنَّ ماء الورد، أخريات يرتلنَ بخفوت آيات من القرآن، يصلين، يحرقن أصابع البخور، يفركن الآس ويسقين آنياته، يقرأن الأدعية، والضرائح ملفوفة بأثواب خضراء مخضلة بكفوف الحناء.. متتابعة.. تتصاغر.. ليتحول آخرها إلى نقطة خضراء. رأى بوضوح وجوه نساء يعرفهن.. أمهات رفاق ماتوا تحت التعذيب.. أُعدموا.. أمهات رفاق كانوا معه في الجبل واستشهدوا..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أمهات.. أمهات.. أمهات قتلى من عصورٍ سحيقة.. وجوه قديسات تشع جلالاً.. وجوه صابرة.. منتظرة..

أسدلت الستارة. كرت تقوده من ذراعه مبهوراً. هبطا درجات السلم الخمس. في الدهليز رشته أجنحة الطيور الخافقة برذاذ المسك فأبتل.. زورته القبور قبراً.. قبرا. مسحت جبهته بترابها. بجلسته على بحر السجادة. أمعنت التحديق في وجهه المغسول بالمسكٍ والتراب طويلا.

ـ وعدت تقول.. ضاقت بي السبُل!.

قامت إلى طرف الغرفة وأتت بمجمرة معدنية، وضعتها قرب قدميه، ألقت على جمرها المتوهج حبيبات حرمل ففرقع محترقاً وتصاعد دخانه. خطت بهدوء إلى حقول الغزلان، استخرجت قدحاً خزفياً من حقيبةٍ قماشية معلقة في عنق ظبي. ملأته ماءً من الإبريق. أزاحت طرف ثوب القبر. غرفت من ترابه حفنةً صغيرةً. رشتها بالقدح وخلطته بسبابتها وقدمته إليه قائلةً:

ـ أشربْ يا ولدي.. أشرب.. سينزاح الريب من قلبك فتبصر السبُل الكثار السالكة إلى أعماق البشر المهجورين.. المنتظرين.

أحتوى القدح بكفٍ تختضُ. فتت الصمت صدى صرخات قريبة.. أدناه من شفتيه المرتجفتين.. ازدحم الكون بالصريخ.. ثم تلاشى، فران صمتٌ قلقٌ كسرته زغرودة طويلة صعدت تدور رفيعةً.. متلاحقةً واختفت بالسكون. بردت أطرافه وشعر بالنعاس، فأغفى مستنداً على ساعد أمه الممدود.

".... رأى نفسه يرقد على تخت خشبي مرتفع تحيط به آلاف

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوجوه.. وجوه نساء شاحبة.. وجوه شيوخ ملتحية.. وجوه صبية.. أطفال خلقي الثياب.. وجوه مواليد بريئة.. وجوه... وجوه.. تتراءى حوله حتى الأفق، وتتطلع إلى غفوته بعيونٍ مترعة بالحزن والانتظار...".

استيقظ ناظراً إلى وجه أمه المائل فوقه بحنان، مغسولاً بماء العيون التعبة.. المنتظرة.

- هيا.. هيا يا ولدي قبل نزول الفجر.. سيمتلئ الحوش بالنسوة اللواتي يجلبن مواليد الليلة للتبرك بالقبور!.

نهض. حزمت في قطعة قماش حفنة تمرٍ ورغيف ووضعتها بين كفيه.. تعانقا طويلاً.. خرج إلى الحوش الذي ضجّ بزقزقة العصافير التي لم تفلح بتغطية نشيج مؤلم طويل انبعث من الغرفة خلفه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

3 - إنها الحرب

في قعر ليل الجبل الموحش أنحدر المقاتلون الستة بخطى واهنة متعثرة على ممرٍ ملتوٍ ينزل صوب نقاط ضوء متناثرة في أسفل الوادي العميق بدت كحفرٍ ثقبت جدار الظلام. الصمت لا شيء غير الصمت. إنهم ينصتون بشرود لوقع خطاهم الثقيلة وطقطقة احتكاك البندقية بصف الرصاص، لغناء طائرٍ حزين، لخرير نبع رتيب، لضجيج أرواحهم المنكسرة. تداخلت ظلال الأجساد المنهكة في الضوء الشحيح المتسرب من كوى بيوت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطين الغارقة بالعتمة، ثم تلاشت الظلال بالأجساد والظلمة وضجيج الروح ومداخل الأزقة المبعثرة. انتصف الليل قبل حين فأنام الحيوات التي همدت مستغرقةً بمجاهل الأحلام. يمموا شطر جامع القرية المنزوي في ركنها القصي، بائدي القوى، فبخلاف العمليات السابقة عادوا هذه المرة بعيونٍ مطفئةٍ وبأرواحٍ من رماد. تحاشوا الخوض في التفاصيل كما يحدث عادة حيث يشرعون حال وصولهم بالإفاضة وتصوير أدق الأشياء من لحظة الانطلاق وحتى العودة. اكتفوا بالتحية وعناق المقاتلين المنتظرين واحداً.. واحداً عناقاً حنوناً طويلا دون ضجة. أنفرد متسللاً إلى زاوية الجامع. خلد إلى فراش منعزل مبتعداً عن الفانوس الذي يبعث ضوءاً شحيحاً حيث تحلق الآخرون حول العائدين. أرخى رأسه إلى الجدار. مدّ ساقيه المتعبتين وأنغمر في الظل يدخن. كان يدرك أن الحديث لابد أن يتركز حول العملية فهم لم يتبادلوا كلمة واحدة في طريق انسحابهم الطويل، وعندما حاول أحدهم تبديد الصمت قائلا:

ـ ليس ذنبنا!.

ولم يرد عليه أحدٌ كف ولم يعد الكرة. فهنالك الكثير من الأشياء لا تحتاج إلى كلام.. كان الصمت معادلاً لإحساسهم بالمرارة. أنصت إلى سيل الأسئلة المنهالة:

ـ ماذا جرى؟.. حدثونا؟!.

والمقاتلون المنهكون يلوذون بصمتهم. أطفأ سيجارته مستذكراً كيف تسللوا قبل انبلاج الفجر بقليل متوغلين بين شبكة من الربايا. كُلِفَ اثنان بمشاغلة الكمين المرابط على التل أسفل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الربيئة والذي يوفر الحماية لخمسة جنود ينزلون مع بغل إلى نبع الماء. كمن الآخرون في أماكن تسيطر على الطريق. رقد مختفياً بين صخرة كبيرة وشجرة "هفرست" كثيفة الفروع تحجبهُ عن المسلك الضيق الممتد مع حافة المنحدر الحاد المؤدي إلى فسحة النبع ومقر الفوج الكائن أسفل السفح. اتكأ على جدار صخرة رامقاً حافات الضياء الأولى زاحفة من جهة الشرق. خف وهج النجوم وظلت نجمة الصبح متلألئة ووحيدة تسكن عناق العتمة والضوء. كان مرتابا تتنازعه مشاعر متناقضة نشوة مصحوبة بقلق.. بهجة واضطرب.

ـ سأضرب.. سأضرب من أذاقني الذل.. سأنفِّس عن حقدي المكبوت منذ سنين.. ما أسعد اللحظة القادمة.. و.. لكن.. ماذا لو كان أخي الصغير الذي سيق جندياً قبل عدة اشهر ينزل مع الجنود الخمسة إلى النبع؟!.. أفترض ذلك.. أفترض أنك ستراه.. ماذا سيكون موقفك؟!.

أنتفض جسده بعنف، ثم استرخى لدقائق بائد القوى، انتفض ثانية متقلصا بتشنج مردداً بخفوت:

ـ لا.. لا.. مستحيل!.

بزغت الشمس من خلف القمة المقابلة وسكبت أشعتها الحارة على مكامنهم شبه العارية. سمع طنيناً بعيداً. أنصت برهافة.. أقترب الضجيج، همس مقاتل قريب:

ـ طيران.. لا تأتِ بحركة.. أختف جيداً!.

أرتعش ودَوَّر حدقتيه ينقبُ بعينين فزعتين ثاقبتين عن مصدر

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الصوت. ومن بعيد بانت ثلاث كتل بحجم الطير لاحقها. أخذت تكبر وتكبر مقتربة وكأنها تقصد مكان اختبائهم. الأزيز ضج الفضاء وقلبه الراكض. سكن بملاذه جامداً والطائرات المروحية حامت فوقهم تنخفض تارة وترتفع تارة أخرى. دارت عدة دورات ثم كرت راجعة من حيث أتت.

استرخى مُمدداً ساقيه المتشنجتين شاعراً بالجوع. تلمس جيب سرواله العريض باحثا عن رغيف خبز يابس حملهُ من أخر قرية مرَّ بها. وجده متكسراً. اخرج قطعتين ورمى بواحدة إلى رفيقه القريب قائلا:

ـ لقد تأخروا!.

ـ قليلا من الصبر.

ارتفعت شمس آب في السماء باعثةً قيضها المدوخ إلى رأسه. انحنى متكوراً وحاول النفاذ تحت فروع شجرة "الهفرست" وخزته أشواكها في رأسه وجنبه، فأرتد إلى جدار الصخرة الحار هامساً لنفسه:

ـ متى يأتون.. متى؟!.

نشّفَ بكم قميصه حبيبات العرق المتصببة بغزارة من مسام وجهه المحتقن ورمى بصره صوب المسلك الصاعد. لم يظهر أحدٌ. نفخ زفيراً مسموعاً. كان سكون المسلك وخلّوه والترقب المتوتر ودقائق الانتظار الموجعة تأخذ بروحه إلى فضاء موحش قاتم يشعره بالاختناق. اعتدل في جلسته واستنفرتْ كل حواسه مصغيةً إلى أصوات غير مفهومة صدرت من جهة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الربيئة. ارتج قلبه وتحسس بندقيته بيديه المرتعشتين:

ـ سَتَقْتُلْ الآن.. ستقتل!.

أكنت تعتقد في يومٍ ما بأنك سوف تقتُل إنساناً.. أنت الفائح طيبةً ومحبة، التائق إلى صحبة الناس. كنت ترتاد المقاهي كل يوم ولا تكفيك وجوه أبناء مدينتكَ الصغيرة، فتنسل عند انتصاف الليل إلى محطة القطار تتأمل وجوه المسافرين عبر نوافذ عرباته المضيئة.. راغباً في صداقة الكل..

وضحت الأصوات، تخشبت أصابعه شبه ميتة على الحديد الحار:

ـ مالكَ.. كنْ هادئ الأعصاب.. هذه تجربتك الأولى وإلا ستربك الرفاق وقد تؤدي إلى حتفهم.

نفض يديه. قلص أصابعه ومدها. أسند بندقيته إلى ما تحت رمانة كتفه اليمنى. صوّبَ إلى الثنية التي سيظهر منها الجنود. انزل البندقية متذكراً:

ـ لا تطلق.. فأنتَ في مدخل الكمين العلوي. دعهم يمرّونَ حتى يصبحوا في وسطه تماما. لا تنس صوب بدقة دون ارتباك. بسرعة سنضرب ونستولي على أسلحتهم وننسحب فأي تاخير سيضعنا في موقف حرج.

ظهر من حافة الثنية جسدان ينحدران على المسلك النازل، يتحاوران بصوت مسموع. اشرأب بعنقه من خلف اشتباك الأغصان مطيلا بصره إلى ما خلفهما وهو يحاول رصد الثلاثة الآخرين والبغل. لم يستبِن أحداً. أصغى إلى الحوار الذي صار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مفهوماً:

ـ توكل على الله.

ـ ماذا تقول لو أمسكوا بنا في نقاط التفتيش.

ـ نتوسل، فليس كل البشر أشراراً، علهم يتركونا نقضي العيد مع أطفالنا!.

ـ والله حيرة.. ألا تعرف أنهم لا يضعون في نقاط التفتيش إلا من كان بلا ضمير!.

ـ توكل على الله!.

تيبس وجهه وعصف بكيانه فراغ دوار ينوح بصدى صفير معدني يقشط الروح جعل يديه تضطربان وأصابعه تتراخى حتى كادت البندقية تهوي. أمتلك زمام نفسه بعناء، وقاس المسافة المتبقية حتى يدخلان دائرة الكمين:

ـ عشرون متراً.. إنها تكفي يا رب الحرب.. إنها تكفي.

والتفت إلى آمر المفرزة القريب:

ـ أسمعتَ؟!.

ـ نعم.

ـ لنحاول أسرهما!.

ـ قد يبدر منهما رد فعلٍ معاكس!.

ـ لنتركهما!.

ـ لم يجرِ الاتفاق على ذلك!.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ إذن.. لنحاول.

ـ حسن.

قالها وشرع يزقزق كعصفور زقزقتين طويلتين تفصل بينهما فاصلة قصيرة. توقف الجنديان وأجالا بصريهما بريبة. كان الهدوء تاماً. تحركا ببطء. بانت ملامحهما بوضوح مطلية بلون الشمس الذهبي. وجهان أسمران ناهزا الأربعين وخطَّ الشيب فوديهما. كانا ينحدران بمشقة من لم يرَ جبلاً في حياتهِ. اشتعلت أحشاؤه بنار ولا نار جهنم. همس مقاتل قريب:

ـ بعد أن يعبرا مكانك أظهر لهما من الخلف واطلب أن يلقيا السلاح.

قال أحد الجنديين:

ـ سنسلم بندقيتينا في مقر الفوج ونبكر غداً مع صياح الديك!.

أصبحا على مرمى خمسة أمتار. غاص قلبه إلى ما بين قدميه والوجهان الأسمران المتعبان المغضنان تجسما لعينيه أليفين، مسكينين قبل أن يغيبا خلف شجرة "الهفرست". انكبست نفسه فأحس بالهواء ثقيلا لزجاً. تقطعت أنفاسه وهو ينهض دائراً بساقين واهنتين من خلف الشجرة الكثيفة. غالب رعشة ألمت بجسده فأختض وهو يقفز إلى المسلك شاهراً سلاحه ومنادياً بصوت مضطرب.. مفكك الكلمات:

ـ ألـ.. قـ..يا.. سلا.. حـ.... كـ ما!.

استدارا بارتباك كلٍ إلى جهة رافعين بندقيتيهما. أزت الطلقات خادشة جلد إذنه. كان القريب يصوب نحوه بينما الآخر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يطلق في الهواء بهستريا راكضاً على الأمام:

- لا.. لا..

وضغط على الزناد بإصبع متيبس. هوت البندقية من يدي القريب قبل أن يسقط رافساً بساقيه. ضجت الربايا المحيطة بالنيران وتساقطت قذائف الهاونات حولهم بكثافة. تقهقر الآخر عائداً بعد أن زخته المجموعة الأخرى بعدة صليات، فأصبح بمواجهته تماماً. صوب بقلبٍ دامٍ وسط ضجيج النيران وأطلق. انكفأ الجندي على ظهره لاطماً أعشاب الأرض وراح يتلوى متقلباً. كان العشب اليابس يهمس بحفيف للجسد المتقلص الذي تكور ضاماً أطرافه إلى صدره كالجنين قبل أن يسترخي هامداً وهو يشخر شخيراً مكبوتاً.

انقلب على بطنه. فرك قسماته بالسجادة فركاً. تقلب مراراً. أرتكز على كوعيه ناظراً بعينين ذاويتين، غائمتين إلى أجساد المقاتلين المبعثرة والغاطة في سباتها في قاع ضوء الفانوس الشديد الخفوت والتي راحت تدور.. وتتداخل وتطفو في الهواء المختنق ثم أخذت تتلاشى مثل كتلٍ جوفاء لينة في العتمة المبهمة لنوافذ وشقوق جدران وأعمدة وزوايا باحة الجامع. دفن وجهه بين يديه غير قادرٍ على نسيان صرخات الرعب المشوهة وجهي القتيلين والتي جمدته للحظة وهو يجردهما من بندقيتيهما.

نيسان/ 1987
أرياف دهوك/ العراق

منشورات «ألف باء AlfYaa»

4 - وداع

انسل وحيدا تحت مطرٍ خفيفٍ لم يزل يتساقط منذ بكرة الصباح. خاض لاهثاً في وحل ممرٍ جبلي يصعد إلى مقبرةٍ مهجورة. كان مشتت الذهن لا يفكر بشيء محدد. ضايقته كتل الطين اللزجة التي تثّقل حذاءه. وجده كما جرى الأتفاق معهم. حطوه في باطن الغروب الماطر تحت شجرة لوز شاهقة ملفوفاً ببطانية مبتلةٍ وملوثةٍ بالوحل وبقايا أنفاس لمقاتلين رحلوا. علق بندقيته بنتوء يشق ابتلال الساق المتهزع. تناول معولهم الصدئ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الذي وضعوه جنب امتداد الجسد. تخفف من ملبسه، شرع يحفر في صلابة الصخور النائمة برطوبة التراب.

.....

في أوخر ليلة ثلجية صاقعة البرد ايقظهما الحرس، تأملا تبعثر أجساد المقاتلين الغاطة في سباتها العميق على امتداد غرفة الطين الرطيبة، الطويلة المرتكز سقفها الخفيض على خمسة أعمدة سميكة من سيقان أشجار يابسة. بصمتٍ ارتديا حذائيهما. حملا بندقيتهما بذلك التثاقل المغمور بالنعاس والمتقطع بهمس حفيف الأغطية، ورطوبة استناد الظهر الخدر إلى الجدار، واحتكاك حديد البندقية في الجنب الخارج لتوه من دفء الفراش. نفذا خلال كوة الباب الخفيضة إلى بياض الثلج الطالي السفوح والأودية والقمم ونفسيهما. في عتمة غرفةٍ رطبةٍ خانقةٍ تبعثرت افرشتها الوسخة في ارتجاج ضوء فانوس هزيل طالعهم وجه مصفر، مرتبك، يغالب رعشة الموت بصوته دون جدوى:

_ رفاق أنها مهمة خاصة!.

.....

.....

اشتد تهاطل المطر والعتمة. صفرت ريح مباغتة عبثت بأعالي الأشجار، فناحت بولولةٍ ازدحمت بأصوات تكسّر أفرع شائخة. كان يزيح بيديه الموحلتين الطين والصخور من باطن الحفرة التي اتسعتْ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انهكته شؤون الطين فاسترخى جالساً على حافتها يتأمل بعينين تحجرتا هموم الرجل المبتل الملفوف الساكن تحت المطر وأوراق اللوز.

- عدتُ لا أحتمل.

- لا تحتمل من؟!.

- كل شيء.. كل شيء!.

- ماذا تعني؟

- نكمن كقطاع طرق لنقتل بشراً من حيث لا يدرون.

- هم يقتلون أيضاً.

- مساقون قسراً بآلية الدولة وقوانينها.. أما نحنُ.. أوف..

انصت في شروده الموحل إلى ضجيج المجرى الرتيب، المنبعث من اسفل الوادي العميق، إلى وشيش تساقط حبات المطر المستمر، وتعّطفَ مفكراً في محنةِ الجسدِ البارِدِ المخبوء في عتمة البطانية البالية الناقعة، .. في الطين... الصخور... مصيره... المطر... تناوح الريح... ونذالات البشر.

.....

.....

يمما مع أربعة مقاتلين صوب انحدار ممر ثلجي يؤدي إلى غرفة منزوية تقبع كالقبر في قعر الوادي. استخرجوا من حلكتها الرطبة العفنة ثلاثة رجالٍ بوجوههم الشاحبة المستريبة المفزوعة الممصوصة والتي فاقت صفرتها وجوه الموتى.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

توغلوا في عمق الوادي الصاعد رويدا.. رويدا.. كان انسلال خيوط الغبش الفضية يرش الرجال التسعة السائرين.. الحالمين بغفوة الفجر العميقة بقطراته الباعثة عميق الشجن، ويذكرهم بدفء الأفرشة المدفونة بعفن الرطوبة في غرف الطين اللاطية في أودية وعرة نسيها حتى الرب. لكلٍّ من السائرين حلمه.. واحد بطفلته والثورة وحلم العدالة

.. والآخر.. بدفء الفراش وغفوة الفجر..

.. بحبٍ منسي قديم..

.. باليقين المجهول..

.. بورطة الحياة..

.. بأمه وأبيه..

.. بغناء بلبل..

وهو.. بالمعاني والأسئلة...

انخرست الأحلام وسفر الصمت والصخور والثلج وغناء البلبل واوائل الفجر وذيول بقايا الظلمة حينما أمر الآمر بالتوقف. أوقفوهم في فسحة عاريةٍ مهجورةٍ قرب جدار صخرة كبيرة. انهمك الثلاثة بإزاحة طبقات الوفر المتجلد. ظهرت بشرة الفسحة السمراء، فارتفعت الاذرع الناحلة بتثاقل ضاربة وجه التراب المرصع والمتراص بفتات الصخر الصلد. أصوات اسنان المعاول الرتيبة المتناوبة واللهاث يكسران صمت الفجر والوجوه والبنادق والوادي والريح التي استكانتْ.

.....

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

.....

كان يغرز في ليلٍ صار شديد الحلكة أصابعه في دفء التراب والصخور اللائذة في العمق، يجمعها، يكتلها، يشمرها إلى دكنة الكومة المرتفعة يسار الحفرة. هدّه التعب فاسترخى. مسح يديه. أخرج علبة دخانه شاهده على برق عود الثقاب يستقيم بصدره الناحل ملقياً كفنه وينحني باتجاهه قبل أن يلتئم بجدار الظلمة.. سمعه يهمس بمفردات مبعثرة عن صمت الرأس العاطل والنبع ومفتاح الخلاص.. بنفس ما كان يهذي به في آخر رقداته بغرفة الطبابة الطينية قبل يومين.

.....

.....

ثلاثة معاول تشق فضة الغبش المظلم وصمت الثلج وعري الأشجار واستيحاش وجوه المقاتلين المفتتة الواجمة المرتبكة.. اوثقوا أيديهم إلى الخلف وصفوهم على حافة الحفر الضحلة.

- استعدوا رفاق.

رمقه جانباً بوجهٍ متبسٍ، هلع، مفجور بصرخة خرساء والبنادق استقامت مصوبة نحو اهتزاز الأجساد الهزيلة

(في غبشة الغسق. في باحة تدفق مبتدأ النبع صَوّبَ بدقة متناهية إلى فمه المفتوح، تحت المطر الساهرمنذ تباشير الفجر. كان قد أستغل أنشغال رفاقه في العشاء وتسلل من غرفة الطبابة متوجها إلى النبع مع بندقيته)

تهالك الأول صارخاً صراخ رعبٍ وتفلش متناثراً في تقلبه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المبعثر. انهار الثالث بصمتٍ متكوراً في ضحالة حفرته كشجرة منخورة ملّتْ الوقوف والدنيا. وصمد الأوسط بوقفته المنحنية جذعاً مشققاً يقاوم شديد الريح بارتجاف مجنون.

(اهتزَّ.. سكن.. وأهتزَّ وسكنَ.. ارتعدَ.. ثم ضغط بسبابةٍ جامدة، انشال وانحط على حافة النبع الدافق مستلقياً على ظهره غائراً في السكون وحارزاً في سواد عينيه اضطراب الغيوم والدنيا وحبات الماء الهامي وشهقة قامات الصنوبر والبلوط)

أنهضه من سقطته وأسنده من تحت ابطيه وانحدر به عائداً إلى القاعدة، بعد دقائق تفجر سكون الغبش الطالع بزخات الرصاص، فرّن صدى الدوي في أرجاء روحيهما ليتذاوى مائعاً في جلال صمت السفوح واشجار اللوز والجوز والبلوط العارية.

أحاطوا امره بالكتمان. منعوا سواه من رؤيته. وجدوه يغفو ملامساً حوض النبع، مبعثر الرأس. كان صاحب الوجه الأصفر الذي بعث بطلبهم في ذلك السحر الثلجي يرتعد. وآخر يغالب دمعته، والثالث لا تنم قسماته عن انفعال ما. تداولوا دونه، ثم أخبروه بالقرار.

انسل وحيداً تحت مطرٍ خفيف لم يزل يغسل الأشياء منذ تباشير الضوء. وجده بالمكان المتفق عليه. قّلَ عقدة الحبل مزيحاً البطانية الموحلة. سحبه من قدميه. انزله بتؤدة إلى باطن الحفرة. احتضنه. احسه ساخناً.. شجاعاً.. مقداماً.. جسوراً. أمالهُ بهدوء إلى أن استكان الجسد إلى طراوة الطين. ازداد صبيب السماء ضراوةً، والظلمة حلكةً، والريح نواحاً. دفع بأول قبضةٍ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

من الصخور المطينةِ إلى فم الحفرة.

كان يدفن روحه.

1986 أرياف دهوك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

5 - لقد أسكته

يضفي لون الغسق المعتم كآبةً على قسماتها الجميلة وهي تتعثر بخطاها الواهنة على المسلك المنحدر المغطى بالأحجار الناعمة المدورة كالكرات. ثوبها الطويل يلتف بين ساقيها تارةً ويخط ماسحاً الأحجار تارةً أخرى شاعرةً بإرهاق فرط المسافات الطويلة التي قطعتها صعوداً هبوطاً على الممرات الجبلية الوعرة. رمقت بعينين منطفئتين كحفرتين وجه طفلها المضيء الذي يغفو ليناً بين ذراعيها الكليلتين فاختنقت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بعبرتها...

... لم تكد تمضي على زواجها سنة واحدة حتى فُقِدَ زوجها في الجبهة فأقفلت راجعةً إلى بيت أهلها حاملةً طفلاً لم يرَ أباه. ظلتْ تتابع بلهفة قوائم الأسرى المذاعة من إذاعة طهران. أتعبها تشابه الأسماء وَقَطْعَتْ أنفاسها أجهزة التشويش، ولم تمل من الانتظار المديد وحلم سماع خبر آسره، والأيام تطوى نفسها ببطء قاسية، متشابهة، محتشدة بآلام وأحزان الحرب.

رمت بصرها إلى السماء الكابية.. تكاد تنكفئ عليها. الوحشة تغرز أسنانها بروحها القاحلة والصخور المشحوذة، القاطعة السكاكين.. والأفق المجهول.

الشارع المبلط يخترق السهل المنبسط أسفلهم كخيط أسود مختفياً بين تلالٍ بعيدة. مَنّتْ نفسها بلقاء أخيها الذي سيرى أبنها للمرة الأولى. فكرت بأبيها الحزين السائر في ذيل المفرزة واللائذ في صمته.

.. لم يفه بكلمة واحدة عقب صفعه بباحة الدار من قبل رجال الأمن أمام مرأى العائلة. تكورتْ ألماً والتصقت بالجدار، ووجه أبيها تكسر مختنقاً بوجعٍ غاضب وصار داكناً كالبئر. وخيمَ عليه الوجوم كشأنه حينما يستدعونه إلى دائرة المن طالبين منه العودة بأخيها الصغير الذي التحق بثوار الجبل، فيرجع محتقن الوجه، غائر العينين، ويلوذ بكرسيه قرب المدفأة وما ان تسأله أمها حتى ينفجر نافثاً جملته بحقدٍ:

- الكلاب.. الكلاب.. يهددونني بالتهجير!.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وبعد أن يشتم ما طاب له، يستريح وينفرط الغم من ملامحه، ولكن في المرة الأخيرة مختلفة فقد بقى وجهه رمادياً.

الظلامُ أطبقَ غامراً كل الأشياء فتقاربت الأجساد مقلصةً المسافات الفاصلة إلى مترٍ واحد.

... لم يتركوا لها فرصةً لجلب القماشة التي تقّمط بها جسده. دخل من باب البيت المفتوح حشدٌ من رجالٍ قساة الملامح، مدججين بالسلاح، ودفعوهم بأعقاب دفعاً إلى الشارع بملابس النوم وحشروهم في عربة "إيفا" عسكرية مكتظة بالطفال والنساء والعجائز، وانطلقت ناهبةً شوارع المدينة سالكةً الطريق العام. أنزلوهم في طريق ترابي وقالوا:

- لا ترجعوا إلا وأبناءكم معكم!.

السكون يملأ ليل الجبل الحالك الظلام بخدر يبعث على النعاس. أحستْ برغبةٍ عارمةٍ في النوم ونسيان كل ما جرى ويجري لها عندما انتبهت إلى صراخ طفلها ينفجر قوياً ملعلعاً، وهمس مضطرب سمعته قرب أذنيها:

- أسكتيه يا أختي.. نحن نقترب من الشارع والربايا.

على عجلٍ فَلّتْ زر ثوبها. أخرجت ثديها وألقمتْ حلمته بين شفتيه. مادتْ برأسها الهواجس ودارت مع أسئلة لا تجد لها أجوبة، إلى أين يذهبون؟.. أين سيستقر بهم المقام؟.. وما ستؤول أحوالهم؟.. و.. فتلبد ذهنها تاركاً التفكير وضائعاً في الغموض الذي يكفن أيامها القادمة، فجعلت خطواتها كالسائر في نومه.. كتلة من الأحزان التائهة في عتمة ليل الجبل البهيم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- اصعدي وأسرعي في العبور!.

همس لها المقاتل الذي لم يبتعد عنها لحظة واحدة مذ حلَّ الظلام. ركزت نظرها وثبتت إحدى قدميها على الحافة الزلقة، وتحسستْ بقدمها الأخرى صاعدةً بحذر إلى الجادة المبلطة. هرولت عابرةً رغم الألم الذي أشعل باطن قدميها:

- تلك هي الربيئة.. سيري بهدوء ودون صوت!.

سَمَعتْ شبحاً يهمس لها وهي تهبط على ممر ينزل من الجادة بشكل مائل يفضي إلى منخفض مظلم. رفعتْ بصرها إلى ضوءٍ ضعيفٍ معلقٍ فوق تلٍ يحجب جزءاً من نجوم السماء. زلتْ قدميها، ففقدتْ توازنها، هوت متدحرجةً إلى أسفل. تلقفتها ذراعان قويتان، ساعدتاها على النهوض، بينما مزق الصمت عويل الطفل المتألم. ارتبكت متعثرةً بخطاها وأصوات مخنوقة تردد بذعر وتأتيها من كل ركن في الظلمة المحيطة بها كالجدران.

- أسكتيه.. أسكتيه.. سيقضى علينا!.

بأصابع مجنونة بحثتْ عن ثديها. حشرتْ حلمته بفم الطفل متذكرةً غضب عجوز في القرية التي غادروها عصراً وهي تصيح

- اللعنة على النساء.. اللعنة.. بسببهن فتحت الربيئة النار على مفرزةٍ فأستشهد ثلاثة شبان.. اللعنة عليها لم تسكت بكاء أبنها.

حرك رأسه يمنياً وشمالاً لافظاً الحلمة من فمه، صاراً على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أسنانه ومنطلقاً بالصراخ. احتوتْ رأسه الصغير بكفها وأطبقتْ عليه بأحكام محاولةً إدخال الحلمة عنوةً وصوت المرأة العجوز يرنُّ بأذنيها واضحاً موجعاً:

- لا فائدة منهن.. سوى جلب المتاعب للرجال!.

ارتطمت الحلمة بأسنانه المتلاصقة.

... يا إلهي سيبادون بسببي.. أصمتْ أرجوك.. الرحمة يا رب.. الرحمة.

لم تشعر بثقله مثلما أحسته في تلك اللحظات. وَدتْ لو رمته بعيداً.. لو.. وأهتز جسدها تحت ثوبها الفضفاض مطبقةً كفها برخاوة على فمه. مزق الجو المتوتر بالهمس المضطرب صوت إطلاقة أزت مارقة من فوق رؤوسهم يتبعها ذيلٌ أحمر مضيء انطلقت من الربيئة التي أصبحوا تحتها، والهمس صار مسموعاً يفيض بالذعر:

-أسكتيه.. أسكتيه..

ارتعشت يداها المتشنجتان. سحبتْ طفلها غامدةً وجهه بصدرها خانقةً الصراخ الذي لم يعد يسمعه سواها وكأنه يصدر من قعر بئرٍ عميقٍ، ثم أخذ بالخفوت رويدا.. رويدا إلى أن أنقطع تماماً، فعاد الهدوء يطلي كل شيء لا يخدشهُ سوى حفيف أقدامهم وصرير الجنادب المتقطع. عبتْ نفساً عميقاً من نسمات أول الليل الباردة، فشعرتْ بارتياح أعقبه شعورٍ بإنهاك شديد حلَّ مفاصلها.

انحدروا في وادٍ ضيق سالكين ممراً يمتد باستقامة على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السفح، يشقون بصمتٍ حلكة الليل وسمائه اللامتناهية، والمرصعة بالنجوم المدلاة كأزهار مضيئة.. لا تدري كم قطعوا حينما رأت على ضوء النجوم الشاحب شبحاً يقترب منها ويسألها بصوتٍ واضح:

- زال الخطر الآن.. كيف حال الطفل؟!.

فَلتْ ذراعيها المطبقتين على جسد طفلها الملتصق بسكينة إلى صدرها. أبعدته قليلاً ناظرة إلى وجهه المشع بياضاً، فانكفأ رأسه إلى الخلف متدلياً رخواً كالعجينة. تسمرتْ بمكانها شاعرةً ببرودةٍ قارصة تنغرز بعظامها وبحركةٍ مجنونة رفعته ملصقةً أذنها على صدره. أنصتت، دق.. دق.. دق.. دقات عالية متلاحقة تركض.. تركض متدفقةً، مالئةً سمعها. قطعت أنفاسها وأرهفتْ مصغيةً ثانيةً. خارت قواها عندما أيقنتْ أن الدقات لم تكن سوى دقات قلبها الفزع. مدتْ ذراعيها بالطفل الساكن دون حراكٍ عليهما إلى المقاتل المصعوق أمامها كخشبةٍ محترقةٍ وصوتها المكسور بالكاد يُسمع من بين شفتيها المرتجفتين، باهتاً، مختنقاً، مبحوحاً مفجوعاً:

- أنظره.. أن.... ظ... ر... ه. لـ.....ق.....د أسكت.....كته.. أ..... س.. ك... ت...ه.

لولان -أرياف أربيل - 1986

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

6 - الجندي

منذُ غبشة الصباح استيقظ معصور القلب، كامداً... حزيناً ... ليس في الأمر مزحة.. إنه ليس تمرنياً.

أزيز دوران المروحة... ط... ر... ط.... ر.... ر.... ر... ر أزيز جعله ينكمش في قرفصته بين أجساد الجنود التي تكتظ بهم الطائرة. أصبح الضجيج موصولاً.. خيطاً طويلاً لفه وهبط بقلبه إلى قدميه. تئز الطائرة في الأعالي وتحتها تمتد الأبسطة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الخضراء المتموجة سابحة في بحر الشمس الذهبي، المروحة صارت دائرة شفافة مرتجفة. وجوه الجنود اليافعة الحليقة، شاحبة تتبادل نظرات متوترة وتبرك في صمتٍ قلق... طر...ر...طر...ر...رر...ررر.

- سنطوق القرية. إنها وكرٌ للعصاة.. اضربوا دون رحمة!.

- أنت.. وأنت.. أخرجوا من الصف.. أسمعوا.. أنتم ستشتركون لأول مرة مع فصيلي لتكن قلوبكم قلوب رجال.

استعرت بنفسه رغبة في التدخين، وتأمل الوجوه بشرود. غار في التفاصيل المجردة. أشكال القسمات.. أحجامها.. أنف طويل.. أنف مفروش، عيون واسعة، شفاه مكتنزة، عيون ضيقة، شفاه خيطية.. عين حولاء.. وأخرى جاحظة. البدلات المرقطة تخفي الأجسام كجلد ضفدع يتلون بلون المحيط.

في الأسفل وعبر مرآة الهيلكوبتر تترامى الحقول وأشياء الأرض. وعلى بعد مسافة بدت في الأفق ثلاث طائرات بحجم ذبابة، صغيرات، دبقات، يخدشن زرقة السماء، ويحافظن على المسافة الفاصلة بينهن. الجندي الجالس لصقه غفا على كتفه. كان معه خارج الصف والضابط يوصي بالرجولة.. تأمله؛ بشرة طرية كالزبدة، لا شعر في ذقنه.. لا شارب.

تدور المروحة.. تضج الأشياء حوله بالصمتِ. فصَّلَ قسمات وجه نائب الضابط الجالس قبالته بشرود؛ أنفٌ ضخمٌ. فمٌ كبير. صف أسنانه العليا دفع الشفة وأبرزها. عينان ضيقتان ماكرتان. سمعه يهمس لرئيس العرفاء. لم يفهم من همهماتهما شيئاً. ربت على خد الجندي الغافي، وقرفص ماسكاً بندقيته بين فخذيه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انخفضت الطائرة وجعلتْ تحوم حول وادٍ أخضر انتشرت في قعره بيوت صغيرة بدت كنقاطٍ باهتةٍ. الطائرات الأخرى توزعت على التلال المحيطة. تعلقت في الهواء ساكنةً. فتح الضابط باب الطائرة. شرع الجنود بالقفز. أمسك خوذته الصفيحية المشبكة بالحبال ونط في الهواء. تدحرج على العشب غير شاعرٍ بمتعة قفزات التدريب بل ألمت به غصة وكأبة متوجساً من مجهول اللحظات القادمة.. وأثناء تدحرجه عاودته عينا ابيه اللتان لم تغيبا عنه منذ بكرة الصباح. تئز القذائف مارقةً من فوق رؤوسهم واصوات إنفجارات هائلة وحرائق اندلعت في أكوام التبن وزرائب الحيوانات المنتشرة حول القرية. انحدر مع صف الجنود المقوس صوب البيوت الطينية المغطاة بسحب كثيفة من الدخان. رمى بصره فلاحظ الطوق المرقط على التل المقابل ينزل. تقلصت الدائرة... ضاقتْ.. أطبقت على كتل البيوت الطينية.

.. أين هم العصاة؟.. هاهو أول بيت..

من كوة دائرية في الجدار ظهرت فوهة بندقية وزختهم بصلية. انبطح على الأرض ضاغطاً على الزناد غريزياً. البيت الذي صدرت منه النار صار منخلاً. وابتدأ يحترق بعد أن أصابته قذيفة "أر بي جي 7". فتائل اللهب تتصاعد من دوائر الشبابيك.. من كتلة الدخان الأبيض إندفع جسد يركض باتجاه رقدته محني الظهر. كان يطلق النار عشوائياً وقبل أن يبلغه تكوم ساكناً دون حراك. جلس متربعاً وتلفت حواليه.. إلى جانبه سقط الجندي اليافع الذي غفا على ساعده في الطائرة ميتاً. كان يتمدد بسكينة مطرز الصدر بالثقوب المدماة وأمامه على بعد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ثلاثة أمتار انكفأ القتيل الآخر على جنبه.. كان شاباً جميلاً. حليق الذقن تنقع شرواله العريض بالدم.

شرد بعيداً متخلفاً عن الجنود المقتربين من البيوت. أخذته الذاكرة إلى مسافات الطفولة البعيدة، والعودة إلى البيت، فانبثق ذلك اليوم واضحاً كالأمسِ حينما استقبلته اخته الكبيرة بوجهٍ يلتمع فرحاً، رمى كتبه المدرسية على تراب الحوش وركض إلى الغرفة المعتمة، وفي زاويتها رأى أخاه الوليد يرقد وسط سلة من الخوص ملفوفاً بأقمشةٍ بيضاء... كان يقف وسط الحرائق وألسنة النار وكتل الدخان الأسود والصراخ وأصوات الرصاص المتقطع والعويل. أحسَ بالاختناق. اسرع داخلاً بين صفوف البيوت، وهو يسعل من الدخان الكثيف المطبق على أزقة القرية.. وجمده المشهد؛ الجنود يطلقون صليات في الهواء، وما بين أرجل النسوة الهاربات من بيتٍ إلى آخر.. طفل ينزف من رأسه ويركض صارخاً. جنود يخرجون من الغرف حاملين حاجيات متنوعة؛ قطع ذهبية، ساعات يدوية، حقائب، جلود، ملابس،... آخرون يكوون ظهور الشيوخ بأخامص بنادقهم... جثث صبية ممزقة قرب الجدران.

اخترق سمعه صراخ أجوف يأتي من باب قريب.. دفعهُ ونفذَ خلاله إلى غرفة فسيحة. جمد بمكانه.. نائب الضابط يتوسد امرأة شابة أرضاً. كانت تصرخ وترفس بساقيها العاريتين المرفوعتين.. وهو يخور كالثور ويدفع بوسطه العاري ضاغطاً ما بين فخذيها البيضاوين، وفي زاوية الغرفة يفحط طفل لم يجاوز السنة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- أتركها يا سافل.

انتفض نائب الضابط، والتفت إليه مرتجفاً للوهلة الأولى بينما زحفت المرأة ممزقة الثوب، منثورة الشعر نحو طفلها الفاحط. ارتدى بنطاله قائلا:

- دعنا نستمتع سوية!.

- أخرس كلب.

امتزج الغضب في تقاطيعه بوميض لذة غريزية ناقصة. تناول بندقيته بيدٍ مرتجفة وخطا نحو الباب مقترباً من وقفته. أصبح إلى جانبه تماماً.. ثم لم يحس إلا بالغرفة تدور به بجنون، فترنح متداعياً إلى الأرض غير شاعرٍ بشيء.

عندما فتح عينيه لفته غمامة بيضاء شفافة مكتظة بدوائر مسننة الحواف.. تدور.. تدور.. وتدور.. تتداخل تقترب.. تبتعد، ثم وضحت الرؤية فميّز خشب السقف الحائل اللون.. واجتاحه صفير أملس.. صفير أهوج.. طويل.

.. أين أنا؟.. ما الذي حدث؟!.

الصمت يطبق على الغرفة.. و...و .. استذكر اللحظة التي أهوى فيها نائب الضابط بأخمص بندقيته على أم رأسه. جلس نصف جلسة ومسح بعينيه الغائمتين جدران الغرفة؛ مرآة مكسورة.. قفص خشبي صغير.. ملابس طفل معلقة على حبلٍ يقطع الغرفة.. استكانات شاي محطمة.. ابريق ماء مقلوب.. دولاب خشبي صفت فوقه افرشة النوم. نهض بصعوبة مستنداً على كفيه. انجذبت عيناه إلى زاوية الغرفة، فارتد فزعاً إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجدار وأخذ يرتعد كمحموم. المرأة البيضاء العارية تسبح في بركةٍ من دم وطفلها إلى جانبها مهشم الرأس. شعر بالغثيان. دارت به الغرفة. تَمَسّكَ بالجدار العاري خلفه. سكن للحظات عاصراً رأسه براحه كفيه قبل أن يندفع باتجاه باب الغرفة الخفيض. الزقاق خالٍ إلا من دخان الحرائق، وأصوات صليات متقطعة تُسمع من الطرف الآخر للقرية.

صفير أخرس انبثق من سكون رأسه.. صفير موجع يكوي الروح، وقبل أن يستدير صاعداً باتجاه مصدر الأصوات سمع نشيجاً مكتوماً ينبعثُ من خلف جدارٍ قريب. توقف متفحصاً المكان.. كان ثمة جندي يبرك لصق جدار الطين مغطياً وجهه بساعده وخانقاً عويله الذي يخرج متقطعاً، خافتاً بادره:

- ماذا بك؟!.

كفكف دموعه المنهمرة وتصّنعَ التماسك وأجاب:

- لا.. شيء.. لاشيء!.

- أين ذهبوا؟!.

- إلى المقبرة!.

- ما الذي يجري؟!.

- ...!.

خلف جدارٍ مقابل لمح جندياً مذعوراً يختبئ. صعد باتجاه المقبرة لاهثاً والصفير صار طنين خلية نحل مستثارة.. ز.. ز.. زززز.. ز... زززززززززززز. الجندي البارك لصق اسفل الجدار عاود النشيج.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- نائب الضابط المنحط.. سأرميه.. .

ومن بين ساقي شجرتي بلوط متقاربتين أبصره يدفع شيوخاً أكراداً وفتية بفوهة رشاشته إلى حفرة واسعة حُفِرَتْ حديثاً، ويأمر الجنود الممسكين بالمساحي بإهالة التراب. الضابط في وسط المقبرة المشجرة يعطي إشارة الرمي على ثلاثة رجال صفوا جوار ساق شجرة توت ضخمة. في طرف المقبرة البعيد الجنود يكبسون النسوة والأطفال في عربات "ايفا" عسكرية.

- أنت... وأنتَ.. وأنتَ.. خطوة إلى الأمام.. لتكن قلوبكم قاسية، اتركوا التفكير بكل شيء: ركزوا على الثأر من الخونة!.

تشوشت الأشياء بذهنه... ز... ز... ز.. زززز صفير... صمت الضجيج.. نشيج الجندي البارك اسفل الجدار.. صمت.. ز.. ز.. ز.. زززز نحنُ ندافع عن حياض الوطن.. زززززز.. ز.. صفير.. جسد القروية العاري السابح ببركة الدم. الطفل المهروس الرأس.. ز.. ز.. زززززز.. صفير أخرس.. رقاب الرجال الثلاثة المتدلية إلى الصدور.. صراخ متصل.. صراخ النسوة المحشورات في عربات "الايفا"، أيدهن المتضرعة إلى السماء.. صفير أملس يسوط الروح. زززززززززز.. زززززز.. كان الضابط يتكئ على ساق شجرة يدخن بتوتر وهو يراقب الأجساد والأكف التي تصارع التراب.. عويل الأطفال.. زز.. زززززز صفير مخيف، فزع العيون المغبرة الأجفان، الصرخات المختنقة والمتقطعة بذرات التراب المتساقطة من أكف المساحي.. صفير معدني يخدش القلب. أخذ يرتعد وهو يقترب من الضابط مهدود المفاصل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

راغباً بالتلاشي.

- ستتعود ذلك!.

- ...!.

- كنْ رجلاً.

- ...!.

صمتٌ متفجرٌ.. صمتٌ حبس الصفير.. وجه الضابط ينتفخ.. يتطوى.. يصغر.. يصغر.. يستدق النهاية.. صار وجه أفعى.

كان يقف أمام الضابط محتقن الوجه، ثقيل اللسان، عاجزاً، أخرس، مشلولاً.. كاد يرتمى باكياً ويقبل قدمي الضابط.. يتوسله ليوقف ما يجري.

- أذهب وشارك في الدفن أن يعجبك!.

و.. ف..ف.. ف.. اجتاحته ريحٌ مجنونةٌ، حارقةٌ هبتْ من عينيه اللاهبتين.. شارك شارك.. شارك.. بالدفن... بالدفن.. بالدفن.. بالدف.. ف.. ف.

خطا خطوة واحدة ثم استدار وهبطَ مستنداً على ركبة واحدة بمواجهة الضابط، وصوب بأصابعٍ جامدةٍ نحو الرأس قبل أن يشعر بحرارة الرصاص تلهب جسده وتجعله يحلق في فضاء شاسع جديد.

شباط 1988
أرياف دهوك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

7 - الصراط المستقيم

كنتُ لم اتجاوز السادسة عشر بعد حينما رأيتك للمرة الأولى. كنا ننقل أثاث البيت من عربة خشبية يجرها حمار في ذلك الزقاق المكتظ بالنسوة والبيوت والأطفال الحفاة. تناولت كرسي والدي الخشبي، هممتُ بدخول المجاز الضيق المؤدي إلى باحة البيت الصغيرة، فرأيتُ صبياً ناصع البياض يقبلُ ضاحكاً:

قالت أمي:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- هذا "صلاح" ابن عمتك اليتيم.

تركتُ الكرسي يسقط من يدي، فقد سمعتُ عنك الكثير، كونك بلا أب منذُ الطفولة.. وعن عمتي الجميلة الرافضة كل دعوات الزواج.. عن حيرتها وتنقلها بين بيت اختها الكبيرة وبيت جدي. عن.. و عن.. اقتربت مفتوح الذراعين كطائرٍ والتففنا ببعضٍ.

على سطح ذلك البيت الصغير كنا نتشجر حولك غارقين بنجوم الليل وحكاياك عن اسواق مسقوفة، مقوسة الأبواب تحنو على زحام النسوة المضمخات بروائح المسك والبخور، وماء الورد.. واللابدات خلف سواد العباءات.. عن أضرحة الصالحين.. وطبول العزاءات الحسينية. عن القباب المذهبة لضريح الرضا.. معصومة.. وشاه عبد العظيم.. وسفرك بصحبة عمتي لزيارة المراقد المهيبة، قلت:

- أتدرون؟.. رأيتُ القيامة؟!.

- القيامة.. بسم الله.. بسم الله.. القيامة!. أين.. أين؟!.

- قرب ضريح الامام الرضا.

جَمَدَنّا الصمت مبهوري الأنفاس بانتظار قصتك العجيبة:

- دخلنا في منفذٍ ضيقٍ في الجبل. ممرٌ حجريٌ منخفض السقف، طويل مظلم. أمسكتُ كف أمي بنوتر، قالت: لا تخف يا بني سترَ القيامة. أغمضتُ عيني وسرت في ظلمة حالكة. لا أدري كم بقينا نمشي، فتحتُ عيني، رأيتُ فتحةً دائريةً مضاءةً بنورٍ أحمرَ وهَّاج، كنا ندنو.. والفتحة تكبر.. وتكبر ويصدر منها لغطٌ صياحٌ وصلوات، فُزِعتُ فأخذت أختض متشبثاً بساعد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أمي التي مررت أصابعها على شعر رأسي قائلة: لا تخفْ يا بني.. لا تخفْ. أفضتْ بنا الفتحة إلى ساحة تمتد إلى اللانهاية ملتحمة بالبشر العراة إلا من قطعة قماش يخفون بها عوراتهم ويصيحون: الله اكبر.. الله اكبر لا إله إلا الله. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله بصوتٍ راعدٍ، وفي نهاية الحشد البشري يترامى بحرٌ هائلٌ من النارِ تتصاعد ألسنتها الحمراءَ وتشب مفرقعةً تتداخل وتفترق. وقفنا جانباً مع جمع النسوة المتلفعات بعباءاتٍ سود. كان الرجال يتزاحمون للوصول إلى سلمٍ من الحبال يؤدي إلى خيط رفيعٍ كالشعرةِ يمتد فوق بحر النار المستعرة. همستُ لأمي بصوتٍ خافتٍ:

– ما هذا الخيط؟!،

- إنه الصراط المستقيم يا بني!.

كان الصراط يغور بعيداً إلى حافة أفق أزرق حيث النهار تحتنا ليلٌ مضاء بنار جهنم، ملايين من البشر.. كتلة لحم عارية تتصارع.. تتماوج وتكّبر: لا إله إلا الله.. الله وأكبر.. لا إله إلا الله.. الله وأكبر.

كنا نرتعش في ليل السطح بصمتٍ ووجهك المنفعل نراه يلوذ مذعوراً بين العباءات تسألنا:

- أتدرون ماذا يبغون؟!.

- ما... ذا.. ماذا يا صالح؟!.

- من يصل إلى حافة السلم يتسلقه إلى الحبلِ الرفيعِ حيث الامتحان. من كان شريفاً.. مؤمناً يعبر الخيط إلى الجنة.. ومن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان لئيماً.. فاجراً يسقط في بحر النار. أفق اليمين ملايين من الرؤوس الحليقة العارية... أفق اليسار ملايين من الرؤوس الحليقة العارية، وخلف ظهرنا جبلٌ تنوش قمته النجمة وأمامنا بحر النار والصراط المرهف الذاهب إلى خيط الأفق البعيد. انفصل أحد العراة من الكتلة اللحمية المتحركة وصارَ في الدائرة الضيقةِ الصعبةِ. أمسك بطرفِ السلم المهتز، ونط إلى حافته.. كتلةٌ عاريةٌ ضائعة الملامح تصعد ببطئ نحو الخيط العالي.. يهتز السلم مع كل خطوة فيتمسك الرجلُ بشدة. عند حافة الخيط سكن واقفاً في الفضاء الأحمر للحظات قبل أن يضع قدمه على مبتدأ الصراط.. ساد الصمت على الحشود. صمتٌ متقطعٌ بفرقعة النار الأبدية. السلم الفارغ يتدلى متأرجحاً، والأنظار شاخصةً إلى القدم الراكدة على الخيط الذي بالكاد نراه. خطا الرجلُ.. فسحة صمت.. طقطقة النار.. خطا.. تجمد دمي. هالني الصمتُ ورعد النار ومصير الرجل، فالتصقتُ بساق أمي.. كانت ترجفُ. خطوة أخرى.. توغل.. توغل سائراً في الهواء، وبغتة مال يميناً.. تكسّر الصمت بلغطٍ خافتٍ أول الأمر.. عالج ليستقيم.. تأرجح يميناً وشمالاً ثم هوى.. فتلقفته أذرع النار. أطبقتُ أجفاني بتوتر دافنا رأسي بحضن أمي مرتعداً من تكبير الحشد الذي كبّر بصوتٍ مزلزلٍ لاعناً الكفرة، همستُ لأمي بصوتٍ مرتجفٍ:

- هل يتعين عليّ عبور الخيط؟

طمأنتني قائلةً:

- لم تزل صغيراً.. إنتظر لما تكبر!.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

.... عندما داهموا بيتكم.. لم يجدوك. كنتَ قد كبرتَ ووجدت طريقكَ إلى كوة الجبل المؤدية إلى ساحة القيامة. اختفيتَ في مدنٍ أخرى.. ولم أركَ سوى مرة واحدةً كنتُ مشيّعاً في جنازة صديقك "مجيد رسن" الذي وجدته أخته الصغيرة الخارجة غبشاً لابتياعِ الخبز ملفوفاً بكيسٍ من الجنفاص أمام عتبة البيت كتلةً ممزقةً، شوهاء. إنفض حشد المشيعين فظهرت من خلف شاهدة قبرٍ قريبٍ. عانقتك مثل عناق المرة الأولى، لكن هذه المرة بكيتْ. كنتَ حزيناً ترمق القبر بعينين شاردتين، ثم اتجهت بخشوع نحوه. بركتَ على ركبتيكَ وأخذت بالتمتمة مع التراب. تأملتك طويلاً.. كم تغيرتَ يا صالح؟!. نتأت وجنتاك. جحظت عيناك. اسمرت بشرتك، وازداد جسدك نحولاً. نهضتَ من صلاتك دامي النظرات. شبكتُ أصابعي بأصابعك الناحلة ورحنا نجوب بأرجاء المقبرة الشاسعة، حدثتني عن ليالي الاختفاء الصعبة، عن عذابك، عن أشياء كثيرة:

- أحياناً تضيق بنا الدنيا يا صديقي بحيث لا نجد ماوى، حالي أحسن من الآخرين كما تعرف أشتغل صباغاً وأنام في بيوتٍ حديثة البناء، لكن غالباً ما اضطر لطارئ إلى النوم في المحطات أو السفر في القطار النازل إلى البصرة حيث أقضي الليل في عرباته. كم معذبة ساعة منتصف الليل والقطار يبطئ ليتوقف في محطة الديوانية المقفرة. كنت أتأمل اضويتها المتباعدة الغارقة بالضباب الشفيف تخفت رويداً.. رويدا في عمق الليل فتبدو في تلك اللحظة والقطار يبتعد كرقعةٍ مهجورةٍ.. مرميةٍ في المجهول. كنتُ أتخيل صبح المدينة، الأزقة، مدرستي، النهر الصغير.. الأحبة. وحينما تغيب نقاط

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الضوء متلاشية والقطار يوغل في ليل الجنوب. احس بكياني يتلاشى ساقطاً في هاوية ألمٍ سحيقةٍ.

تصمت لحظة متأملاً شواهد القبور الممتدة حتى الأفق. ثم تلتفت نحوي بعينين مغرورقتين وتتسائل بشجن:

- أهنالك نهاية لأشواقنا المستحيلة؟!.

- ....!.

وتسألني عن أحوال عمتي.. وأنت لا تدري بأنني أخرج كل يوم كالعادة مع أفول الشمس متوهماً وجودك فأمرّ على بيتكم المنزوي في أحد أزقة "الجديدة" الضيقة وأحزن حينما لا أجدك فاسألها عما تحتاج ونجلس وحيدين في الباحة نستذكركَ ونعّبُ من عبق الكلام الفائح بطيبتك.. وقبل يومين وجدتُ الباب مفتوحاً، رفعتُ الستارة، دخلتُ في المجاز نصف المعتم، وسط غسق الباحة كانت تقفُ ضامةً وجهها بقماشةٍ بيضاء وغارقة بنشيج متقطع، خافت. حاولت العودة من حيث أتيت. إرتددتُ خطوة إلى الخلف، اختنقت بنشيجها. أبعدتْ القماشة المدعوكة عن وجهها قليلا فوقع بصرها عليّ. مسحت صبيب الدمع بأطراف أناملها، كنتُ مرتبكاً لانتهاكي طقس وحدتها، وسر ألمها، بادرت بالقول وأنا أدنو منها بخطواتٍ وجلةٍ:

- كنتُ أرتب خزانة الملابس القديمة فعثرت على قميص صلاح!.

كان صوتها مرتعشاً، خافتاً، متكسراً.

كانت ذائبة بطيبك المدوخ... تضمخ شجنها بغبار روحك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العالق بقميصك المنسي..

ارتبك الصمت.. ضاع الكلام.. لبسنا الأسى، فغادرت البيت إلى البار وسكرت:

- إنها بخير!.

- أوصيك بها؟!.

.... أغرقتنا في ليل طفولة السطح المضاء بمصابيح السماء الفضية بصمتٍ محشودٍ بالنار والبشر العراة ووجهك اللامع فرط الانفعال:

- يحدث مرات عديدة.. ينفك أحدهم من الكتلة المكبرة المعروقة ويمسك بأصابعٍ مترددةٍ طرف الحبل، ويظل يرواح بمكانه قلقاً، يرفع قدماً وينزلها، يرفعها.. وينزلها.. فتتصاعد أصوت صاخطة، يتلفت مضطرباً بعينين جزعتين، ثم تجتذبه الكتلة اللحمية الهائلة فيموع في الحشد، تقول أمي بغضب:

- النذل جبن في أخر لحظة!.

نوغلُ في الغروب الكابي بين أقفاص القبور الحديدية، ننصت لنشيج الموتى، لوجوهٍ باسمةٍ ترمقنا من مستطيلات حفرت جص الشواهد. شملتَ حشد الموتى بعينين متأسيتين. تمعّنتَ بطبع الأصابع المتبسة على أجساد القبور؛ آلاف الوجوه المنسية.. آلاف الأجساد المتحللة برمل صحراء النجف الأحمر، ملايين الذوات الإنسانية لم يبقَ منها سوى كتلة حجر مجصص ترتفع عن مستوى الأرض بأقل من مترٍ. انهكنا الصمتُ والقبور ووقع خطانا وعيون الموتى والغد المجهول. توقفت في ممر يتسع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لقامتينا والتفت نحوي لتقول:

- مرة واحدة يعيش الإنسان!.

- ... .

- يا صديقي.. المترددون جلبوا لنا المتاعب، فبشق الأنفس نعثر على غرفة منزوية رثة يكشفها مترددٍ أعتقلَ وانهار فنضطر إلى هجرها متشردين في الحدائق والمحطات والبيوت الخربة والقطارات.

يزداد قلبي دكنةً، وتردف بعد صمت قصيرٍ ضاج بأرواح الموتى.. وبأرواح نابضة مغسولة بماء اليقين:

- يتكرر الأمر!.

- ..... .

- قل لي.. لِمَ يورط الآخرين من ليس له القدرة على تحمل المشقة؟!.

وأحير بم أجيب، فذلك سرٌ أتعب ويتعب الكل والإنسان يا حبيبي بحرٌ مزدحمٌ بالأسرار.

- ... .

- يبدو أن الإنسان لا يتأمل معنى الكلام.

- ... .

- لو يتأمل لفهم حديث النبي "محمد"؛

"رحم الله امرء عرف قدر نفسه".

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ... .

تستبطيك عمتي.. تصعد السلم وتناديك من أوله:

- قم يا صالح الدنيا نصف الليل.

نترجاها كي تتركك تنام معنا.. نمعن في الترجي.. تبقى وأرواحنا معلقة بفمك لتكمل رحلتك العجيبة.

- رأيتُ المئات يسقطون في أمواج النار مودعين بملايين اللعنات.

ويدفعني الصمتُ ورغائب جسدي المراهق لتوه إلى سؤالك همساً:

- ألم تتسلق النساء السلم؟

كنتُ أحلم بالمرأة عاريةً تسير على حبل الله

رمقتني بنظرة عاتبة وقلت:

- النساء لا يسرنَ على الصراط المستقيم.. فالأمهات في الجنة دون امتحان!.

كنتَ خجولاً.. ذلك الخجل الرصين المنبعث من صفاء الروح، لم تعرف المرأة عن قرب بالرغم من بلوغك العشرين حين اختفيت وظلت جارتنا الصبية ذات العينين العسليتين والوجه المستدير كالتفاحة يعذبني مرآها الذي يذكرني بعشرات الرسائل التي كتبناها سويةً ولم ننجح ببعث واحدة.

... خلف رأسك المضيء توهجت نجمة وهوت.. ومن جهتك هبتْ نسمة باردة يتيمة ورؤوسنا ضائقة بالنار والجبل والأفق

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأزرق البعيد وجمع النسوة بعبائاتهن السود المطلات من علٍ على الرؤوس الحليقة العارية، المعروقة، المتلاصقة. سألتك:

- ألم ترَ أحداً يعبر الخيط؟!.

- نعم.. نعم.. رأيت.. انفكَّ بيسرٍ من كتلة اللحم البشرية المتموجة وقطع دائرة اللهب، ثابت الخطوات نحو السلم الحبلي المتأرجح. أمسكه بأصابع قوية وصعد بخفة. راح يتسلق والسلم صار كالخشب وكفَ عن الاهتزاز. خطا الرجلُ على الحبل بخطى واثقة وكأنه يسير على شارع مستوٍ عريض.. حتى النار بلعت طقطقتها وكتمت أنفاسها مثلنا. كنا نحملق بعيونٍ مفتوحة متصلبةٍ.. ظلَّ يسير.. ويسير.. لم يتأرجح أو يميل.

لذتَ بالصمت لحظات، فأستعجلتك مردداً:

- وبعد.. وبعد..

- صار نقطةً صغيرةً، ومن الأفق الأزرق البعيد ظهرت ملائكة تخفق بأجنحة خضراء يعشي ضوؤها العيون وحملته إلى الجنةِ والحشد الهائل زلزل بصوتٍ واحد:

- الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

في أول عتمة المساء، وعلى طرف المقبرة النائي، انفككت مني بيسرٍ وابتعدتَ عدة خطوات.. ورأيتك تضاء بخفق أجنحة خضراء ترفرف حولك انبثقتْ من باطن الظلمة، وبهدوء حملتكَ واختفتْ.

تشرين أول 1987
أرياف دهوك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994دار الكنوز الأدبية بيروت ـ لبنان.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
2. **رؤيا الغائب** (رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق ـ سوريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
3. **سرير الرمل** (قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق ـ سوريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
4. **الإرسي** (رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025).
5. **الحياة لحظة** (رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
6. **في باطن الجحيم** (رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد ـ العراق، الترجمة الإنكليزية 2014 دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية. الطبعة الثالثة 2025 ـ دار الرواد المزدهرة بغداد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
7. **حياة ثقيلة** (رواية)، الطبعة الأولى 2015دار الأدهم القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
8. **إعدام رسام** (رواية)، 2016دار الأدهم. القاهرة ـ مصر. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
9. **طفلان ضائعان** (قصص)، الطبعة الأولى 2019 دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

10. **كل شيء ضدي** (رواية بجزئين)، 2021دار الدراويش بلغاريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
11. **قبلة الصباح** (قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا.
12. **دونت سبيك أسطب** (رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق. ـ النسخة الرقمية **"ألف** ياء alfyaa.net"- 2025)

منشورات «ألف باء AlfYaa»

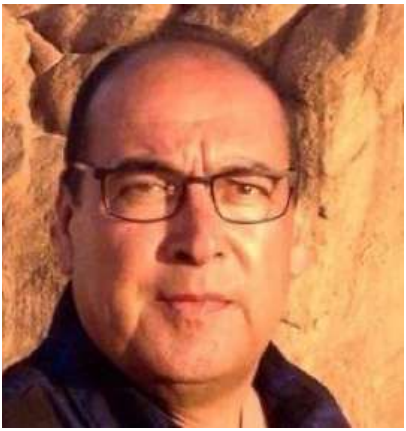

سلام إبراهيم

سلام إبراهيم، روائي عراقي، ولد في 8 كانون الثاني / ديسمبر 1954، في مدينة الديوانية ـ العراق. يقيم حاليا في كوبنهاغن ـ الدانمارك منذ العام 1992، متزوج ولديه ولدان وبنت.

بدأ سلام إبراهيم مساره الحيوي مبكراً في نشاطات سياسية وأدبية، عايش خلالها تحولات العراق الحديث القاسية. تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات بين عامَي 1970و1980، بسبب مواقفه المعارضة لنظام الحكم آنذاك.

في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، تم تجنيده كجندي احتياط إلى جبهات القتال الجنوبية، لكنه اختار الانشقاق والانضمام إلى صفوف أنصار الحزب الشيوعي العراقي في آب / أغسطس 1982. بعد تسلله إلى المدن وعيش حياة مختبئة بين شباط 1983وتشرين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأول 1983، عاد قسراً إلى وحدته العسكرية، ليُرسل إلى جبهات القتال في البصرة حتى شباط 1985.

واصل مواجهته مع النظام بانضمامه مجدداً إلى الثوار في كردستان، مصطحباً زوجته معه، لكنه اضطر إلى ترك ابنه البكر وراءه. تعرض لجريمة إنسانية جديدة خلال القصف الكيميائي الذي استهدف مقرات المقاومة في "زِيوة" قرب العمادية في 5يونيو 1987، ما أدّى إلى إعاقة رئتيه بنسبة 60%.

في حملة "الأنفال"عام 1988، نزح مع آلاف الكرد إلى تركيا ثم إيران، حيث عاش في مخيمات اللجوء حتى عام 1992، حين استقر أخيراً في الدنمارك، حيث يقيم حتى اليوم.

المسار الأدبي:

بدأ سلام إبراهيم كتابة القصة القصيرة أوائل سبعينيات القرن الماضي، ونُشرت أولى قصصه في صحيفة "التآخي"العراقية (كانون الأول 1975). طوال مسيرته، كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة، وتوزّع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والرواية والنقد، مع مساهمات في صحف ومجلات عربية دولية مثل "الثقافة الجديدة"، "القدس العربي"، "الحياة"، "السفير"، "الاغتراب الأدبي"، وصحف المعارضة العراقية.

منشورات «ألف باء AlfYaa»